وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمّه لخضر الوادي
معهد العلوم الإسلامية
قسم الحضارة الإسلامية

# محاضرات مقياس الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر

سنة ثانية ليسانس حضارة إسلامية

الدكتور علي زواري أحمد

السنة الجامعية: 1443 – 1444هـ / 2021 – 2022 هـ

# المحاضرة الأولى: تعريف الفكر لغة واصطلاحا

**تمهيد:**

يعتبر الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر في نظر الباحثين هو محاولة تجديد وتطوير للفكر والخطاب الديني الإسلامي، وتحليل الظواهر الدينية بدراسة كل ما عرفته في تراثها الأصيل ومزجه بما هو حاصل في الواقع المعاصر، ومن ثم خلط ودمج الأصيل بالحديث وبالمفاهيم الحداثية العصرية مواكبا للتطور الاجتماعي والتاريخي والنفسي والسياسي للعالم والمجتمعات ككل، وفي نظر التيار المعتدل أخذ ما يصلح وينفع من التراث والأصيل ليتماشى مع ما ينفع ويصلح في الواقع المعاش من تطورات وتغيرات في كل مناحي الحياة الإنسانية وتأويل النصوص الدينية بما يخدم هذا المفهوم حتى لا يقع الجمود وحتى لا يحدث انجراف تام لكل ما هو غربي بما في حضاراتهم من سلبيات وإيجابيات، ولهذا فالفكر الإسلامي المعاصر هو محاولة إحياء الفكر الديني من جديد وإعادة بعثه من خلال دراسة التراث الإسلامي ليتماشى مع معطيات الواقعّ، وذلك من أجل أن تكون الريادة لهذه الأمة بما تحمله من مكونات حسية ومادية ومعنوية.

والفكر كمصطلحٌ يطرق الأسماع كثيراً، وباستقراء معناه في معاجم اللغة يجد الباحث أنّه يدلّ على إعمال العقْلَ في مقدّماتٍ معلومةٍ، وترتيبها بشكلٍ يُوصل إلى كشف مجهول، لذا جاء في تعريف الفكر: إعمالُ العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهولٍ، والفكرة هي الصورة الذهنيّة المتشكّلة لأمرٍ ما، ويمكن القول بأنّ الأفكار هي: تكوّن الآراء في عقل الإنسان نتيجة تدبُّر الأَشياء بالتأمّل، وإعمال العقل وصياغتها على شكل نصوصٍ، ومن هنا فإنّ الفكر يعني إعمال المرء لقدراته العقلية في محصوله الثقافي؛ بهدف إيجاد بدائل لأمرٍ ما، أو حلٍّ لمشكلات، أو كشفٍ للعلاقات بين الأشياء، وتحديد القدر المشترك بينها، ويمكن الاستنتاج بأنّ الفكر ليس مصطلحاً رديفاً للأحكام والمبادئ، ولا بديلاً عن الثقافة أو العلم، وإنّما هو

نشاطٌ عقليٌ يُجري صوراً ذهنيةً لمسائل محيطةٍ من أحداثٍ وأشياءٍ، كما يهدف إلى توسيع الآفاق في النظرة إلى المستقبل، ولذا فليس كلّ عالمٍ مفكّراً، وليس كلّ مفكّرٍ عالماً، على اعتبار أنّ الإلمام بالجزئيات من شروط العالم، بينما ينظر المفكّر إلى الكليّات، وترى المفكّر لا يشغلُ جهده ووقته في الدّخول إلى عالم الجزئيات، على اعتبار أنّها مندرجةٌ تحت ما يبحثون فيه من قضايا كليّةٍ.

**الفكر في اللغة:**

فَكَّرَ (بالتشديد) يُفَكِّرُ تفكيرًا، ويقال: فَكَرَ (بالتخفيف) يَفكُرُ فِكرًا أو فَكرًا على وزن: ضَرَبَ يَضرِبُ ضربًا، ويقال: أفكَرُ في الأمر: فَكَرَ فيه فهو مُفْكِر، ويقال: فَكَّرَ في الأمر مبالغة في فَكَرَ، وهو أشيع في الاستعمال منه من فَكَرَ، ويقال: لي في الأمر فِكرٌ: أي نظر ورويّة، ويقال: ليس لي في هذا الأمر فَكرٌ: أي لا أحتاج إليه ولا أبالي به.

وقد جاءتْ مادَّة "فكر" في "لسان العرب" بمعنى إعْمال الخاطر في الشَّيء، يقول ابن منظور في لسان العرب الفكر بقوله: الفكر، والفكر: أعمال الخاطر في الشيء...والتفكر اسم التفكير، ومنهم من قال فكري. وقال الجوهري : التفكر: التأمل.

وجاء عند ابن فارس: "فكَرَ؛ الفاء والكاف والراء: تردّد القلب في الشيء، يقال: تفكَّر، إذا رَدَّدَ قلبه معتبرًا، ورجل فِكِّيرٌ: كثير الفكر".

وعرفه الفيروز آبادي بقوله : الفكر، بالكسر ويفتح، أعمال انظر في الشيء كالفكرة.

فالفِكرَة: من الفِكر، وهي الصورة الذهنية لأمر ما، وجمعها فِكَرٌ. وقيل: الفِكرُ مقلوبٌ عن الفرك، لكن يستعمل الفِكرُ في الأمور المعنوية وهو فركُ الأمور وبحثها للوصول إلى حقيقتها. جاء في "المعجم الوسيط": الفِكرُ مقلوبٌ عن الفرك، لكن يستعمل الفِكرُ في الأمور المعنويَّة، وهو فركُ الأمور وبحثُها للوصول إلى حقيقتها.

**مادة فكر في القرآن الكريم:**

وعندما نتصفح آيات القرآن الكريم نجد الحث على استخدام العقل، والدعوة إلى التفكر، والتدبر، والنظر قد احتل مساحة واسعة في القرآن الكريم. فقد جاءت مشتقات العقل في تسع وأربعين آية كلها بالصيغة الفعلية، مثل يعقلون، وتعقلون، ونعقل، وعقلوه، ويعقلها، بينما لم ترد كلمة العقل بالصيغة الاسمية في القرآن، وان وردت مرادفاتها بهذه الصيغة، مثل: اللبّ، والحلم، والحجر، والنهى، والقلب، والفؤاد، التي جاءت بمعنى العقل.

وأما مادة (فكر) فقد وردت في القرآن الكريم في نحو عشرين موضعًا، ولكنَّها بصيغة الفعل، ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾. أي فكر فيما أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن، وقدر فيما يقول فيه، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾. أفلا تتفكرون في آيات الله؛ لتبصروا الحق. وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

يقول القاضي عبدالجبار في معني "ينظرون" إنه التفكر بالقلب، قال الله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أفلا يفكرون في خلقها... ويضيف بأن "النظر إذا قيد بالقلب لا يحتمل إلا التفكير، ثم إن النظر بالقلب له أسماء من جملتها: التفكير، والبحث، والتأمل، والتدبر، والرؤية وغيرها".

وعلى الرغم من كون مادة (فكر) قد وردت في القرآن الكريم بصيغة الفعل ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر (فِكر)، إلا أن الفعل في اللغة العربية يدل على الحدث ذاته، وعلى من قام به وهو هنا المفكر. وقد انتزع بعض الباحثين من ذلك أن الله – عز وجل – أبان ولفت أنظار عباده إلى أن هذا العمل الذهني مرتبط بذات، وأنه لا يكون فيما لا طائل من ورائه.

وهذا يوحي بتوجيه العقل نحو النهوض بوظيفته التي خلق لأجلها، وهي العمل باستمرار على التفكر، والتدبر، والتبصر، والنظر، والتذكر، والتفقه، وهذه كلها أفعال تتطلب فعالية دؤوبة متوثبة للعقل بنحو متواصل.

**الفكر في الاصطلاح:**

عُرِّفَ الفكر في الاصطلاح بتعريفات كثيرة – قديمة وحديثة – منها:

يقول أبو حامد الغزالي: "اعلم أن معنى الفكر هو احضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة". فقد جعل الفكر مرادفا للتأمل والتدبر.

والفكر يدل على النظر عند إمام الحرمين الجويني الجويني حيث يقول: "والنظر في اصطلاح الموحدين هو الفكر الذي يطلب به من قام به علما أو غلبة ظن؛ ثم ينقسم النظر إلى قسمين: إلى الصحيح وإلى الفاسد".

وهو ما قاله أبو القاسم جار الله الزمخشري في كتابه المنهاج في أصول الدين أن: "النظر هو التأمل والاستدلال: ترتيب علوم أو ظنون ليتوصل بها إلى علم أو ظن، كمن رأى دخاناً فعلم أن تحته ناراً، فالذي تُوصِّل به إلى هذا العلم ترتيب علمين قبله وهما: علمه أن الدخان لا يكون إلا عن نار، وعلمه أن ما رآه دخان".

ويقول القاضي عبد الجبار الهمذاني في كتابه شرح الأصول الخمسة: "الفكر هو المعنى الذي يوجب كون المرء متفكراً، والواحد منا يجد هذه الصفة من نفسه، ويفصل بين أن يكون متفكراً أو بين أن لا يكون متفكراً، وأجلى الأمور ما يجده الإنسان من نفسه".

ويقسم القاضي النظر إلي نوعين: أولها النظر في أمور الدنيا، كالنظر في العلاجات والتجارات، والثاني النظر في أمور الدين، وذلك على قسمين: أحدهما النظر في الشُبه لتحل، والثاني النظر في الأدلة ليتوصل بها إلى المعرفة.

ويعرفه التهانوي بقوله: "ولا شك أن النفس تلاحظ المعقولات في ضمن تلك الحركة، فقيل: الفكر هو تلك الحركة، والنظر هو الملاحظة التي في ضمنها، وقيل لتلازمهما إن الفكر والنظر مترادفان".

وعرّف المرحوم الشيخ عباس القمّي الفكر بقوله: "اعلم أنّ حقيقة التفكّر طلب علم غير بديهي من مقدمات موصلة إليه. وقيل التفكّر سير الباطن من المبادئ إلى المقاصد، وهو قريب من النظر، ولا يرتقي أحد من النقص إلى الكمال إلا بهذا السير".

وعرف الشيخ محمد رضا الفكر بقوله: "تعرف مما سبق أن النظر –الفكر– المقصود منه إجراء عملية عقلية في المعلومات الحاضرة لأجل الوصول إلى المطلوب".

وعرفه عبد الرحمان الزنيدي: "والفكر في المصطلح الفكري – والفلسفي خاصة – هو الفعل الذي تقوم به النفس عند حركتها في المعقولات، أي النظر والتأمل والتدبر والاستنباط والحكم، ونحو ذلك. وهو كذلك المعقولات نفسها، أي الموضوعات التي انتجها العقل البشري".

وعرفه طه جابر العلواني بقوله : "الفكر اسم لعملية تردد القوى العاقلة المفكرة في الانسان، سواء أكان قلبا أو روحا أو ذهنا بالنظر والتدبر، لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة، أو الوصول إلى الأحكام أو النسب بين الأشياء".

يقول جميل صليبا: "وجملة القول أن الفكر يطلق على الفعل الذي تقوم به النفس عند حركتها في المعقولات، أو يطلق على المعقولات نفسها، فإذا اطلق على فعل النفس دل على حركتها الذاتية، وهي النظر والتأمل، وإذا اطلق على المعقولات دل على المفهوم الذي تفكر فيه النفس".

وعرفه صاحب (المعجم الوسيط) بقوله : "الفكر إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة المجهول و"الفكرة: الصورة الذهنية لأمر ما".

أما صاحب الموسوعة الفلسفية فقد ذكر عدة تعريفات منها : الفكر [هو] النتاج الأعلى للدماغ كمادة ذات تنظيم عضوي خاص، وهو العملية الايجابية التي بواسطتها ينعكس العالم الموضوعي في مفاهيم وأحكام ونظريات... هو الشرط

الجوهري لأي نشاط آخر، طالما أن هذا النشاط هو نتيجته المجملة والمتمثلة، والكلام هو صورة الفكر".

وقد ورد في بعض المعاجم تعريف مادي إلحادي للفكر تحت مسمَّى "الفكر الحر"، جاء فيه: "الفكر الحر هو النزعة في التفكير التي تبتعد عن المفهوم الديني لتفسير العالم ووضع قواعد الأخلاق في الحياة، مع الالتزام أصلاً برد القواعد الأخلاقية إلى ما يمليه العقل والتجارب".

أما د. محمد عابد الجابري فيفرق في كتابه (إشكاليات الفكر العربي المعاصر) بين ثلاثة مستويات من الفكر:

الفكر كأيديولوجيا بمعناها الواسع العام.

والفكر كأداة.

والفكر كمحتوى.

ويعرف الفكر كأيديولوجيا بمعناها الواسع بأنها "مضمون الفكر ومحتواه، أي جمله الآراء والأفكار التي يعبر بواسطتها هذا الشعب أو ذاك عن مشاكله واهتماماته، عن مثله الأخلاقية ومعتقداته المذهبية وطموحاته السياسية والاجتماعية، وأيضاً عن رؤيته للإنسان والعالم".

ويعرف الفكر كأداة بأنه: "أداة لإنتاج الأفكار سواء منها تلك التي تصنف داخل دائرة الأيديولوجيا أو داخل دائرة العلم، هو أداة بمعنى أنه جملة مبادئ ومفاهيم وآليات، تنتظم وتترسخ في ذهن الطفل الصغير منذ ابتداء تفتحه على الحياة لتشكل فيما بعد "العقل" الذي به يفكر، أي الجهاز الذي به يفهم ويؤول ويحاكم، ويعترض، وهي عبارة عن عناصر متداخلة ومتشابكة بصورة تجعل منها بنية: أي منظومة من العلاقات الثابتة في إطار بعض التحولات، الأمر الذي يعني أن الفكر أداة تعمل بثوابت معينة وأن عملها ذاك لا يخترق حدوداً معينة كذلك، هي الحدود التي تنتهي عندها التحولات والتغيرات التي تقبلها تلك الثوابت، أي التي لا تمسها في ثباتها وتماسكها".

والفكر كمحتوى هو: "جملة من الأفكار والآراء والنظريات تنتظمها عناصر ترتبط بعلاقات بنيوية، علاقات تجعل منها أجزاء تستقي دلالتها ووظيفتها من الكل الذي تنتمي إليه، وهي بنية من التصورات، ومن الآراء والأفكار والنظريات".

ويربط الجابري بين الفكر كأداة والفكر كمحتوي ويقول: "المبادئ والمفاهيم والآليات الذهنية التي يفكر العربي بواسطتها هي علي الرغم من طابعها كلي إنساني، ذات طابع خصوصي أو فيها جوانب من الخصوصية تسمح وتبرر وصف الفكر الأداة الذي تشكله بأنه "عربي"، تماماً مثلما أن الآراء والأفكار والنظريات التي ينتجها المثقف العربي المؤطر بمحيطه العربي، الاجتماعي الثقافي، تشكل محتوى فكريًّا "عربيًّا" ليس فقط لأنه يتناول قضايا عربية أو قضايا إنسانية في بعدها العربي بل أيضاً لأنه نتيجة قراءة تتخذ المحيط الاجتماعي الثقافي العربي إطاراً مرجعياً لها...وإذاً فالفكر العربي هو في آن واحد أداة ومحتوى أو بنية عقلية وبنية أيديولوجية (بالمعني العام والواسع لكلمة أيديولوجيا)".

# المحاضرة الثانية: تعريف الفكر الإسلامي

الفكر الإسلامي مصطلح مركَّب، وهو جديد تعدَّدت استِعْمالاته لدى كثيرٍ من الباحثين العرب والمسلمين وحتَّى المستشرقين، ويعتبر المحدد (الإسلامي) هو الضابط الأساسي الذي من خلاله يتحدد معنى مفهوم الفكر الإسلامي؛ إذ الإسلامية هي الإطار الذي به وعليه وحوله تدور مجموع تأملات ونظرات المفكرين المنتمين إلى المذهبية الإسلامية؛ خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هوية الفكر – أي فكر – وخصوصيته، لا يتم التوصل إليها إلا من خلال النظر في العلاقة المتينة الموجودة بين هذا الفكر والمرجعية التي ينتمي إليها، والتي تمنحه الرؤية وتحدد له نوع المنهج، بل وحتى الأهداف.

ولهذا توافر كثيرٌ من العلماء والباحثين لتحديد تعريف أو أكثر للفكر الإسلامي، ومن أبرز هذه التعريفات هو: "كل ما أنتج فكر المسلمين منذ مبعث الرسول –صلى الله عليه وسلم– إلى اليوم، في المعارف الكونية المتصلة بالله –عز وجل– والعالَم والإنسان الذي يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني لتفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدة وشريعة وسلوكًا"، أو "كل ما ألَّفه علماء المسلمين في شتى العلوم الشرعية وغير الشرعية بغض النظر عن الحكم على مدى ارتباط هذا النتاج الفكري بأصل العقيدة الإسلامية. أو نتاج الفكر الذي تصدى للفلسفات والنظريات الغربية ناقدًا لها وواضعًا البديل الإسلامي محلها"، أو "كل نتاج للعقل البشري الموافق لمنهج الإسلام"، أو "كل ما هو غير تجريبي من مقومات الحضارة الإسلامية سواء كان تشريعًا أو علم كلام أو ما شابه ذلك". وبعبارة أخرى هو "الجانب الفكري التصوري البحت الذي يقوم من كل حضارة مقام الخارطة الهندسية المصممة للبناء"، أو "هو فقه الوحي وفهمُ رجال هذا الفكر له، ثم شروحهم عليه"، أو "الحكم على الواقع من وجهة نظر الإسلام"، أو "المنهج الذي يفكر به المسلمون أو الذي ينبغي أن يفكروا به".

بالنظر في هذه التعريفات وما سبقها من تعريفات للفكر مجردًا عن الوصف أو الإضافة نلحظ الآتي:

– أن الفكر إما أن يراد به الكيفية التي يدرك بها الإنسان حقائق الأمور التي أعمل فيها عقله، فيكون الفكر عندئذ بمثابة الأداة أو الآلية في عملية التفكير وما يلحق بها من طاقات وقوى وملكات عقلية ونفسية، وإما أن يراد به ما نتج عن ذلك "من خلال تلك العملية" من تصورات وأحكام ورؤى حول القضايا المطروحة.

– عندما يضاف الفكر إلى الإسلام أو يوصف الفكر بأنه إسلامي، فإن المفهوم يتأثر كذلك بالمنطلقات المشار إليها سابقًا، فإما أن يراد به كيفية عمل العقل وما يلحق به من القوى المدركة لدى الإنسان في ضوء الإسلام، ولذلك عرفه بعضهم بأنه: "المنهج الذي يفكر به المسلمون أو الذي ينبغي أن يفكروا به"، وقد لحظ صاحب هذا التعريف بأن هذا المعنى الكيفي للفكر المتمثل في حركة الذهن للانتقال من المعلوم إلى المجهول ونحو ذلك من التعبيرات المختلفة التي تؤدي المعنى نفسه، هو ما استخدمه الأقدمون مثل "ابن سينا" و"الرازي" و"ابن خلدون"... ولخصها "الجرجاني" في تعريفاته بقوله: "الفكر ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول"، وهذا التعريف يربط بين الفكر والمنهج، ويلزم معه الإلمام بمدلول المنهج لغة واصطلاحًا.

– وإما أن يراد بالفكر الإسلامي ما أنتجه الفكر في ضوء الإسلام. ثم تختلف المنطلقات والغايات حول تحديد الفكر الإسلامي؛ فبعضهم يطلق مسمّى الفكر الإسلامي ويريد به كل ما أنتجه فكر علماء الأمة وباحثيها في ضوء مبادئ الإسلام وأحكامه وضوابطه، ولا يدّعي العصمة لهذا الفكر ولا يدخِل فيه الوحي "الكتاب والسنة"، وإنما يدخِل فيه ما خرج عنهما أو انبثق منهما. وبالجملة فهو يفرق بين الإسلام وبين الفكر الإسلامي ويحترز من الخلط بينهما.

وهناك بعض التعريفات التي تتفق مع هذا التعريف في السعة والشمول لكل ما أنتجه الفكر المنسوب للإسلام، ويكفي فيه أن ينتسب أصحابه إلى الإسلام. وهذا التعريف لا يتقيد بما تقيد به التعريف السابق من كون الفكر لا يحسب على الإسلام

إلا إذا وافق عقيدة الإسلام وشريعته وهديه. ولا شك أن هذا التعريف قريب من تعريفات بعض المستشرقين الذين يدخلون في الفكر الإسلامي الفلسفاتِ الدخيلةَ والعقائد الفاسدة، لكنه لم ينص على الوحي الإلهي، بل يظهر منه استثناء الوحي الإلهي من مسمّى الفكر.

– تنفرد بعض التعريفات، بالنظر في نتاج العقل نظرة موضوعية، بغض النظر عن المفكر فما وافق الإسلام من تراث الفكر الإسلامي أو أنتجه فكر المسلمين في ضوء الإسلام، فإنه يسمى فكرًا إسلاميًّا.

وملخص القول بعد كل هذا فإنه يمكن أن يعرّف الفكر الإسلامي في ضوء الخصائص الآتية:

– الجمع بين عمل الفكر كأداة وبين ما ينتجه الفكر من ثمار.

– أن ينصَبَّ الفكر الإسلامي على الناحية التنظيرية دون العملية.

– أن يعرَّف الفكر الإسلامي بأنه فكرٌ موجه أو بعبارة أنسب ملتزم ولكن في ضوء تعاليم الإسلام، فلا يتوافر الفكر في ظل الإسلام على الخوض فيما نهى عنه الشارع، ولا يتحرر من الضوابط الشرعية والأخلاقية، ولا يدخل فيما ثبت عن الله وعن رسوله –صلى الله عليه وسلم– وما أجمعت عليه الأمة، وإنما يدافع عن ذلك ويُظهر حكمة الشارع فيه، ويلتمس العلل والمقاصد والبراهين والمسوغات لذلك في الحدود المشروعة، بمنهج نقدي مؤصل ينفي ما علق بالفكر الإسلامي من مغالاة المغالين وتفريط المفرطين.

– لا ينطوي التعريف على منع البحث في المعارف والعلوم التي تقوم عليها حياة الإنسان على الاكتشاف والابتكار وإعمال العقل فيما خلِق له، وهذا ما حققه الفكر الإسلامي، فقد أسهم بقسط وافر في تأصيل كثير من النظم والقوانين الحضارية التي أصبحت بمثابة الأسس للحضارة الحديثة.

– لا يخلع التعريف المقترح على الفكر الإسلامي العصمة، ولا يوهم بأن الوحي جزء منه، بل ينصب على بذل الجهد واستفراغ الطاقة العقلية والنفسية فيما أفسحه

الشارع الحكيم –عز وجل–، وقد يطابق الصواب نتيجة التزامه بالقواعد المنهجية واتصافه بالنزاهة والموضوعية، وقد يحتمل الخطأ وفقًا لما أُثر عن علماء الأمة ومجتهديها من قولهم: "مذهبنا راجح يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا مرجوح يحتمل الصواب".

– الفكر الإسلامي يضم كل ما أنتجه العقل الإسلامي في كل المجالات وبخصوص كل الإشكاليات والقضايا المرتبطة بالوجود والطبيعة والعلاقات والحياة...، ولكن من وجهة إسلامية، أي خاضعة للمنهجية الإسلامية التي حددتها الشريعة الإسلامية ابتداء؛ وبذلك يتم إخراج كل الفلسفات والأفكار والمفهوم التي تعتمد خلفية عقدية أو فلسفية غير إسلامية.

# المحاضرة الثالثة: مصادر وخصائص الفكر الإسلامي

**أولا – مصادر الفكر الإسلامي**

يمكن أن نحصر مصادر الفكر الإسلامي في التالي:

**1 – الوحي**

بناءً على ما جاء في مفْهوم الفكْر الإسلامي فإنَّه ينطلق من الإسلام كمرْجع موجَّه، يحكم بكلّيَّات الفكر وجزئيَّاته؛ لذلك فإنَّ الوحي بشقَّيه (الكتاب والسنَّة) يعتبر المصدرَ الرَّئيس للفكر الإسلامي؛ حيثُ يحدّد الرّؤية الكلّيَّة النّهائيَّة للإنسان المسلم، وما يتفرَّع عنها من أبعادٍ تربْويَّة واجتِماعيَّة وسياسيَّة واقتِصاديَّة وغيرها، وقد أجاب الفِكْر الإسلامي في مختلف عصوره عن إشكالات عدَّة في المجالات المذْكورة، تمثَّلت في جملة العلوم التي ما فتِئَت تتبلْور وتتأصَّل بداية من القرْن الثَّاني للهجرة، كالفقه وعلوم الحديث وعلْم الكلام وغيرها من العلوم.

**أ – مصدر القرآن الكريم**

القران الكريم هو أساس الإسلام وعماده، وهو الوحي الخاتم الذي تكفَّل الله تعالى بحفظه. والقرآن الكريم من حيث الثبوت: قطعي الثبوت، ومن حيث الدلالة: منه قطعي الدلالة مما لا يحتمل إلا فهمًا واحدًا، ومنه ظني الدلالة مما يجوز فيه تعدد الأفهام. وعلى هذا الاعتبار، أوجد الفكر الإسلامي لنفسه مساحة واسعة في تدبر كتاب الله تعالى، وتشعَّب هذا التدبر إلى مدارس واتجاهات متعددة؛ سواء في التفسير أو استنباط الأحكام أو غير ذلك.. مما أثرى الفكر الإسلامي وأغناه.

فيعتبر القرآن الكريم مصدر الفكر ومنبع الفهم والمعرفة والتشريع والحضارة ومقياس الخطأ والصواب، وعلى أساسه يبني المسلمون فكرهم وحضارتهم وثقافتهم وعلومهم ومعارفهم في الفقه والتشريع والعقيدة والفلسفة والأخلاق والفنّ والأدب وشتّى صنوف المعرفة والفكر والثقافة.

لقد كان نزول الوحي في أرض الجزيرة العربية على الرسول الكريم محمّد صلى الله عليه وسلم بداية التغير والانقلاب الفكري والحضاري والعقائدي والاجتماعي الشامل، فقد شكل نزول القرآن منعطفاً تأريخياً حاسماً في حياة البشرية، ومنطلقاً جديداً عبّر القرآن عن هذا الانقلاب الحضاري والتأريخي الشامل بانّه إخراج من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن الموت إلى الحياة.

قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. وقال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. إن السعة والشمول والاستيعاب القرآني القائم في نصه ومفهومه وسعة أفق معالجته، مصدر ثري للفكر ومادة أساسية لصناعة وتقويم وتسديد المعرفة الإنسانية ووضعها على طريق الاستقامة.

والعلاقة بين القرآن الكريم والفكر الإسلامي تتلخص في مجالين أساسيين هما:

المجال الأول – أن القرآن منبع ومصدر للفكر والثقافة والحضارة الإسلامية؛ نظراً لما حوى من السعة والشمول، ومن مادة فكرية وثقافية وعلمية، فقد وضع الأسس والقواعد العامة والإطار الشامل للفكر الإسلامي ولخط الحياة والمعرفة الإسلامية.

وقد نص الوحي على سعة أفق القرآن وعموم معالجته وشموله لكليات وأسس التشريع والفكر والمعرفة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾. وهكذا نصل إلى تشخيص الموقف القرآني في الفكر الإسلامي، وأنّه المعين الذي لا ينضب، والمنبع الذي لا يجف، وأنّه قاعدة الفكر والحضارة، وأساس المعرفة والثقافة.

إنّ القرآن الكريم قد وضع الأسس والكليات العامة للتفكير الإسلامي الملتزم، والمادة الفكرية المحررة من قيود الزمان والمكان، وأرسى قواعد التفكير الإسلامي الملتزم.

وإن فهم القرآن واستنباط الفكر والمعرفة من كتاب الله يحتاج إلى عقلية إسلامية مستوعبة لروح القرآن، ومدركة لمحتواه الفكري، وقادرة على استبطان العمق وبلوغ الأغوار البعيدة لخزائن القرآن، والربط بين الأفكار والمفاهيم الواردة في كتاب الله واستنتاج المطلوب.

المجال الثاني – وبالإضافة إلى إن القرآن مصدر للفكر والمعرفة، فإنّه مقياس للفكر الإسلامي وميزان لضبط الصواب، وتسديد الفكر وتقويمه. فعلى أساس القرآن يجري تقويم الفكر والمعرفة والثقافة، وبه يُعرف الصواب من الخطأ، فكما أنّه مصدر للفكر والثقافة فهو أيضاً مقياس للصواب والأصالة.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

إنّ الله تبارك وتعالى في كلّ ذلك يثبت لنا وجوب الرجوع إلى القرآن كمقياس وميزان للفكر والمعرفة ومفاهيم الحياة والتشريع والقانون، صيانة للتفكير السلامي ومحافظة على روح الشريعة ونقائها، وما جاء في السنّة يعضد هذا إن مبدأ الالتزام بالكتاب والسنة كأساس ومقياس وأداة فحص وتقويم للفكر والمعرفة والثقافة

والحضارة، لضمانة أكيدة لتحقيق الأصالة الفكرية وحفظها من التشويه والاندساس والذوبان، وإن في هذين المصدرين لغنى وثروة فكرية لا تنفد، وأسساً وموازين لا تقصر في أي مجال من مجالات الفكر والمعرفة عن الفحص والضبط والتقويم وتشخيص الخطأ والصواب.

وقد أغنى العلماء والفلاسفة والمفكرون والباحثون الإسلاميون وأصحاب الفن والأدب الإسلاميين آفاق الفكر الإنساني بالفكر والمعرفة والعطاء الإسلامي الملتزم في كل مجال وفن، واستطاعوا مناقشة ومحاكمة الأفكار والنظريات والفلسفات والمذاهب المخالفة للإسلام على أساس الكتاب والسنة وقواعد العقل، فأنتجوا ثروة فكرية إسلامية فريدة، واستطاعوا إفراز الفكر الغريب والنظريات والآراء الضالّة والمنحرفة، وشخّصوا الخطأ والصواب في النتاج الفكري فاكتمل البناء وتحدد منهاج البحث والتفكير والاستنباط والتثبيت القويم.

وللاستفادة من النص القرآني بمفرداته وجمله وسياقه يحتاج إلى دراسة وتحليل وفهم دقيق وعميق ولذا وضع المفسرون أسساً ومناهج متعددة لفهم القرآن وإيضاح معانيه، كما وضع علماء الأصول الأسس والقواعد الأصولية لفهم القرآن والتعامل مع محتواه وتحليله واستنباطه.. وهكذا كل العلوم المتصلة بالقرآن الكريم، وقد بلغت تلك المناهج – على اختلافها – ذروة الكمال والإتقان في كيفية استفادة الأفكار والمفاهيم القرآنية، وضبطت فهو وتأويل النص القرآني بما يحافظ على أصالته وأفكاره ومعانيه بما يريدها الشارع الحكيم.

وعليه لا يستغني الباحث والمفكر الإسلامي الذي يريد اكتشاف الأفكار والمفاهيم والنظريات في مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والنفس والفكر... عن فهم مناهج التفسير والتأويل، وعن فهم القواعد الأصولية واللغوية المتعلقة بفهم القرآن.

كما ينبغي أن نشير هنا إلى أن التفسير والتأويل القرآني ينبغي أن لا يقتصر على الطريقة المألوفة، وهي شرح المفردات أو تفسير الآيات تفسيراً لكل آية في

موضعها وبحدود عطائه الجزئي، بل ينبغي أن نتجاوز ذلك إلى الدراسة الموسعة والبحث المستهدف لإنتاج قضية فكرية متكاملة كأن تكون قضية سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو أخلاقية أو عقائدية أو قانونية ...، فنتناول الموضوع ونبحثه بحثاً نفاعل فيه بين الآيات ذات العلاقة بعضها مع بعض، بالإضافة إلى الاستفادة من سبب النزول، فهو يشكل مصدراً إيضاحياً وإغناء للفكرة والمفهوم، لذا ينبغي الرجوع إليه والاستفادة منه، وربط ما ورد في السنة من إيضاحات تتعلق بموضوع البحث مع هذا العطاء القرآني لنحصل على نظرية أو فكر متكامل في ذلك الموضوع.

**ب – مصدر السنة النبوية**

فهي المصدر الثاني للإسلام، وهي أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته. ومجال إعمال العقل في السنة واسع جدًّا؛ نظرًا لاتساع مساحة ظني الثبوت فيها، بخلاف القرآن الكريم، فضلاً عن ظني الدلالة منها. وقد مارس المسلمون هذا الإعمال للعقل في حياة النبي صلى الله عليه، في الحادثة المشهورة حينما استنفرهم للذهاب إلى بني قريظة، قائلاً: "لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا في بني قُرَيظة" (رواه البخاري). واختلفوا في تفسير ذلك حينما حانت صلاة العصر، على النحو المعروف، وأقر النبي صلى الله عليه وسلم كلا الفريقين على موقفه؛ مَنْ صلَّى العصر في وقته حين أدركه، ومن أخّره حتى وصل إلى بني قريظة.. وأمثال هذا كثير في السنة النبوية ولكن نكتفي بما ذكرنا من باب البيان لا غير وقد ركزنا على القرآن الكريم بحكم التخصص في اللغة والدراسات القرآنية.

**2 – الكون:**

غير أنَّ الفكر الإسلامي لا يشمل الإنتاج الَّذي يتناول الإسلام كموْضوع للمعرفة فقط، بل هو كل إنتاج ينطلق من الإسلام كمرجعيَّة تحدّد له رؤيته الكلّيَّة للكون والإنسان والحياة؛ لذلك فالكون هو المصدر الثَّاني للفكر الإسلامي، وقد جاء

القرآن الكريم يتحدَّث عن الكون في الكثير من آياتِه، بل إنَّ الآيات التي تحدَّث الله فيها عن الكون أكبر وأكثر من آيات الأحكام.

والكون في الرّؤية الكونيَّة التَّوحيدية يشمل الكون الطبيعي (سنن الآفاق)، وذلك بمعرفة القوانين الكونية الطبيعيَّة في السموات والأرض والحيوان والنبات والإنسان لاستخراج آيات الله فيه، ومعرفة سننها التي تسيِّرها وتسخيرها في إعمار الأرض لتحْقيق خلافة الإنسان.

والكون الإنساني سنن الأنفس، وذلك بدراسة قوانين المجتمعات الإنسانيَّة، وسنن قيام الحضارات وأفولِها، وتدخل فيها الخبرة الإنسانيَّة وما أنتجتْه في التَّاريخ والاجتِماعيَّات والإنسانيَّات بما يتوافق فيها مع الرُّؤية التَّوحيديَّة؛ يقول تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾.

غير أنَّه ينبغي أن نُشير هنا إلى ضرورة التَّفريق بين ما يعتبر مصدرًا في الفِكْر الإسلامي، وما يعتبر رافدًا، فالكون الإنساني يعتبر مصدرًا للفكْر الإسلامي لمعرفة سنن الأنفس (الاجتِماعيَّة والنَّفسيَّة) بما هي قوانين وضعها الله تعالى في الأفراد والأمم والمجتمعات، أمَّا الخبرات الإنسانيَّة وما أنتجتْه من فكرٍ، بغضِّ النَّظر عن اختِلاف مِلَله ومذاهبه، فيعتبر رافدًا من روافد الفِكْر الإسلامي، يُؤخذ منه ويردّ بِما يخدم أهدافه، ويتوافَق مع الرُّؤية التَّوحيديَّة.

فالفكر الإسلامي لم ينعزل عن الإنتاج البشري في العلم والمعرفة، وانفتح على الآخرين ورحب بما لديهم، ولم ينغلق على ذاته.. لكن من حقه أن يرفض ما في هذا التراث البشري مما يخالف الأصول الإسلامية ويناقضها.. ولهذا ترجم المسلمون علوم الطب والكيمياء والفلك أولاً قبل أن يترجموا الفلسفة والمنطق، كما رفضوا ترجمة الأساطير اليونانية التي تقوم على الوثنية وتعدد الآلهة وصراعاتها فيما بينها.. .

وإذا أمعنَّا النَّظر في الفكْر الإسلامي برمَّته بما فيه من علوم إسلاميَّة وآراء فكريَّة وغيرها، فإنَّما نشأت من هذين المصدَرين: الوحي والكوْن.

وخلاصة القول فإن الفكر الإسلامي؛ يستمد مصادره من الوحي، قرآنًا وسنة.. وكلما اقترب من الوحي مفهومًا ومضمونًا صحَّت نسبتُه إلى الإسلام وتسميتُه به. كما أنه فكر بَشريٌّ الصياغة؛ أي قام العقل البشري بتقعيده واستنباط أصوله وتفريع مسائله.. ومع ذلك فليس الفكر الإسلامي كله نتاجًا بشريًّا بحيث يمكن الاستغناء عنه، كما يزعم من يريدون تجاوز "التراث الإسلامي"، أو من يهاجمون اجتهادات الفقهاء.. بل داخلُ هذا الفكر مساحةٌ تقوم على الوحي الإلهي، ومساحة أخرى تقوم على فهم العلماء. ولهذا بقدر اقترابه من الوحي، تصح وتتأكد نسبتُه إلى الإسلام وتسميتُه به.

**ثانيا – خصائص الفكر الإسلامي**

يتميّز الفكر الإسلامي عن غيره من المدارس الفكرية الأخرى بالعديد من الخصائص، ومنشأ هذا التّميّز أنّه مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بشريعة الإسلام، وهذا الارتباط هو سبب قوّته وعنوان تميّزه، على اعتبار أنّ الدّين هو الوضع الإلهي الذي يقود ذوي العقول السليمة إلى الاختيار المحمود في شؤون الدنيا والآخرة، ويمكن إجمال خصائص الفكر الإسلامي في الآتي:

1 – الربانية: فالفكر الإسلامي ربانيّ في غاياته ومناهجه، إذ الوحي مصدره، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

2 – الوضوح: حيث يمتاز الفكر في الإسلام بوضوح المحتوى والأهداف والوسائل، وهو يسير في طريق موازٍ للفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومنسجمٌ مع المهمّة التي انتدب الله الإنسان لتحقيقها، وهي عمارة الأرض بالحقّ والعدل، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

3 – الشمول: حيث إنّ الفكر الإسلامي يتناول كلّ شؤون الحياة الدنيا، ويستوعب كلّ القضايا الروحية ومسائل الآخرة، ويوجّه خطابه الفكري إلى كلّ الشعوب، أفراداً وجماعات، ولا يقف عند زمنٍ دون آخرٍ، ولا يتقوقع في مكانٍ دون

سواه. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

4 – التوازن والتوسّط: وتبع هذه الخصيصة من كون المسلم يُحكّم أفكاره وتصوّراته الذهنية من وسطية رسالة الإسلام واعتداله، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. فالفكر الإسلامي لا إفراط فيه ولا تفريط، بل موازنةٌ بين متطلّبات الجسد وأشواق الروح وفضاءات العقل، كما يحفظ هذا التوازن في نظرته للحقوق والواجبات، وكذلك في مجال الفردية والجماعة، ويجري كلّ ذلك على نسقٍ فريدٍ منسجمٍ مع روح رسالة الإسلام. الواقعية.

5 – الثبات: الفكر في الإسلام ليس خاضعاً للتبديل أو التغيير حسب الأهواء والأمزجة، بل هو فكرٌ ثابتٌ حيث يجب الثبات كما في العقائد والأوامر والنواهي القطعية، لكنّه مرنٌ في كثيرٍ من القضايا الفقهية على اعتبار أنّ الفقه في الإسلام متجدّدٌ في كثيرٍ من الفروع والجزئيات، كما أنّ الفكر الإسلامي في التّصدّي للأفكار الدخيلة التي تقف سدّاً وعائقاً أمام نهضة المجتمع ومصالح العباد.

6 – المرونة والواقعية: أي له قدرة هائلة على استيعاب المستجدات والتعامل مع المتغيرات، وعدم الجمود على هيئة بعينها؛ ذلك لأنه يقوم على نصوص قطعية وأخرى ظنية، وهذه الأخيرة تفتح الباب واسعًا لإعمال العقل في استيعاب المستجدات وتكييفها بما يتفق مع الأصول والثوابت والمقاصد.. ولهذا قال الإمام الجويني: "والرأي المبتوت المقطوع به عندنا أنه لا تخلو واقعة عن حكم الله تعالى، مُتلَقًى من قاعدة الشرع".

7 – احترام العقل: يحتلّ العقل في الفكر الإسلامي مكانةً رفيعةً، فهو آلة النتاج الفكري، وعليه يعوّل في الفهم والكشف والاستنباط سواءً في التّأمل في عجائب الكون، أو في التّدبر بالنّصوص الشرعية لاستخلاص مقاصدها وبيان دلالاتها، وقد جعل الإسلام العقل مناط التكليف، ورتّب على الإنسان مسؤوليةً في الاستخدام الأمثل لما أكرمه الله تعالى به من نعمٍ يستدلّ بها على كثير من الأفكار والصور

الذهنية؛ فقال تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾.

وهنا يمكن أن نشير لبعض الأمور المهمة الناتجة عن احترام العقل، والتي نجملها فيما يلي:

– احترام الرأي والاجتهاد المنبثق عن أصوله وضوابطه التي وضعها أهل الاختصاص.

– احترام العقل يؤدي للتعدديّة الفكريَّة، وذلك تبعاً للاختلاف في تفسير الواقع، وسبل التعايش معه، وتبعاً للاختلاف الفقهي بشكل عام، وتبعاً للاختلاف في فهم النصوص وسبل التفكير.

– احترام العقل فيه مجال للتمايز بين مفكر وآخر، تبعاً للتمايز في درجة الالتزام الديني، والاستيعاب العلمي والمعرفي، والاتجاه الفكري الذي يحكم تصورات المفكر، فلا ريب أن هناك فرق بين المفكرين الإسلاميين قديما وحديثا.

– مراحل الفكر الإسلامي هي مراحل ممتدة وطويلة، وقد يحدث بين المفكرين اختلاف في توصيفها، وبيان محدداتها وحدودها، وهي نتاج تطور الثقافة الإسلاميّة، وتفاعلاتها مع الواقع من حولها، فالفكر الإسلامي هو فكر واقعي يتعايش مع الواقع، ويتفاعل معه، ويجتهد في رسم تصوُّر له، وقد يحدث الاختلاف بين المفكرين في تصورهم للأحداث الفكريّة، وأنظمة الحكم تبعاً لاختلافهم في فهم الحياة، والواقع وسبل التعامل معه.

ولعل من هذا كان الاختلاف بين الجهود الفكرية للمسلمين ما أدى للتنوع والتكامل بينها في شتى المجالات المعرفية، وقد أكد أهل الاختصاص أنّ ثمرة الفكر ونتاجه الحضاري يظهر في العلوم والأحوال والأعمال، وعلى ذلك فإنّ الفكر الإيجابي هو مفتاحٌ للخيرات جميعها، وفي تاريخ الإسلام نماذجٌ عظيمةٌ من العطاء الفكري وما أنتجه من الموروث الحضاري في شتّى المجالات، حيث.

فقد صنّف الإمام الماوردي كتاباً فريداً من نوعه في أدب الدنيا والدين، حيث جمع فيه بين السياسة الشرعية والفكر السياسي والتربوي، ولا يخفى النتاج الفكري للإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين، كما أبدع المفكّر الإسلامي ابن خلدون في التصنيف في مجال الفكر الاجتماعي والعمران البشري، وهذا غيضٌ من فيضٍ ما أنتجه الفكر الإسلامي للحضارة البشرية.

وهذا ما دفع المسلمين لتتبّع الحركة الفكرية عبر التاريخ؛ فوقفوا على أصوله، وبيّنوا ضوابطه، وكشفوا عن خصائصه، وعقدوا المقارنات بين الفكر الإسلامي والفكر الإنساني العالمي، وذلك بهدف بيان الصورة الأصيلة للفكر الإسلامي والحالة التي يجدر البناء عليها، خاصةً في ظلّ ما يشهده العالم من تجاذبات فكريةٍ وحضاريةٍ تظهر في المصنّفات الحديثة، والمحاورات المعاصرة حول الفكر الإسلامي وتميّزه.

وقد نادي المختّصون بضرورة أنْ يخوض في غمار الحديث عن أصالة الفكر الإسلامي أهله من المؤهّلين والقادرين على النّظر في المستجدّات والنّوازل، وأنْ يكون لديهم القدرة على التمييز بين الغث والسّمين في الاتجاهات الفكرية المعاصرة.

وعلى العموم فالفكر الإسلامي يتميز عن غيره من المدارس الفكرية الأخرى، ومنشأ هذا التّميّز أنّه مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بشريعة الإسلام، وهذا الارتباط هو سبب قوّته وعنوان تميّزه، على اعتبار أنّ الدّين هو الوضع الإلهي الذي يقود ذوي العقول السليمة إلى الاختيار المحمود في شؤون الدنيا والآخرة.

# المحاضرة الرابعة: اتجاهات ومراحل الفكر الإسلامي

**أولا – اتجاهات الدراسات الحديثة والمعاصرة للفكر الإسلامي**

شكل التراث الفكري الإسلامي مخزونا علميا معتبرا للدارسين والباحثين والمهتمين بدراسة التراكمات الفكرية والثقافية والأدبية التي أفرزتها الحضارة العربية الإسلامية عبر مختلف عصورها. وقد تعددت حوله الرؤى والآراء والنظرات تبعا لاختلاف دوافع وأدوات وتبريرات الدارسين له، بحيث تشكلت خريطته وفق الاتجاهات الآتية:

1 – اتجاه الدراسات الانتقائية للتراث: وتزعمه في عصرنا المفكر المغربي محمد عابد الجابري (1935–2010م).

2 – اتجاه الدراسات الشمولية للتراث: وتزعمه كل من طه جابر العلواني (1935–2016م)، وطه عبد الرحمن (1944– 2018م).

3 – اتجاه الدراسات الديالكتيكية المادية: المادية الديالكتيكية هي فلسفة العلم والتاريخ والطبيعة التي تطورت في أوروبا واستندت إلى كتابات كارل ماركس وفريدريك إنجلز. يؤكد الديالكتيك الماركسي على أهمية ظروف العالم الواقعي، من حيث الطبقة والعمل والتفاعلات الاجتماعية والاقتصادية.

وتزعم هذا الاتجاه مفكرو اليسار كعبد الله العروي (1933 –2019م)، والطيب تيزيني (1934 – 2019م) ، وإسماعيل صبري عبد الله (1925– 2006م)، وعبد الرحمن الشرقاوي (1921–1987م) ومحمد حافظ دياب (1938–2015م).

4 –اتجاه الدراسات العلمانية: وتزعمه العلمانيون العرب والمسلمون بدءا من عصير رافع رفاعة الطهطاوي (1801–1873م) وخير الدين باشا التونسي (1820–1890م)، وقاسم أمين (1863–1908م)، ونجيب الحداد (1824–1899م)، وفرح أنطون (1874–1922م)،وشبلي الشميل (1850–1917م)، والوجوديون العرب كعبد الرحمن بدوي (1917–2002م)، وحتى عصر العولمة

كالسيد ياسين (1933–2017م)، والحبيب الجنحاني، وصادق جلال العظم (1934–2016م)، ومحمود أمين العالم (1922–2009م)، وسمير أمين (1931–2018م)، ومحمد أركون (1928–2010م).

5 – اتجاه الدراسات الاستشراقية: وتزعمه المستشرقون المغرضون: كهاملتون جب (1895– 1971م)، وجولد زيهر (1850–1921م) ولويس ماسينيون (1883–1962م)، والمحايدون كغوستاف لوبون (1841–1931م) وجاك بيرك (1910–1995م)، و روجه جارودي (1913–2012م)، وغيرهم.

6 – اتجاه الدراسات الحداثية: من أصحاب مناهج التفكيك والتشكيك والتحليل، أمثال: نصر حامد أبو زيد (1943–2010م) ، ومحمد أركون (1928–2010م) ، وحسن حنفي (1935 –2021م) ، ومحمد شحرور (1938–2019م)، و هشام جعيط (1935–2021م)، وعبد المجيد شرفي (1942م).

7 – اتجاه الدراسات القومية: يبدأ من القوميين العرب الأوائل كمحمد كرد علي ( 1876– 1953م)، وساطع الحصري (1879 – 1968م)، وزكي الأرسوزي (1899– 1968م)، وأنور عبد الملك (1924 – 2012م)، وقسطنطين زريق (1909–2000م)، وفليب حتي (1886–1978م)، وأكرم الحوراني (1911–1996م)، وميشيل عفلق (1910–1989م)، وغيرهم.

والمتتبع لأدوات ومنهج ووسائل كل مدرسة من هذه المدارس الفكرية يتبين زاوية النظر التي كمن وراءها الدارسون لتتبع صيرورة وتطور تراكمات الفكر الإسلامي، كما يتبين أيضا مواطن الخلل والصواب في التحليل والوصول إلى النتائج والخالصات التقريبية الصحيحة أو المقبولة معرفيا وعلميا .كما يتبين أيضا مدى حماسة تيار وحرارة عاطفته تجاه أو ضد تراكمات الفكر الإسلامي، أو مدى تجرد ودقة وموضوعية تيار اتجاه التراكمات الفكرية، بغض النظير على موطنها، أو أصحابها، أو ظروفها، وبغض النظير عن الاتجاهات التي درست تراكمات الفكر الإسلامي، وقيمت مسيرته، وحللت أدبياته ومنطلقاته، وفككت رموزه ومعطياته،

وتابعت بنيته وحركيته وغاياته، فإن دراسة تراكمات الفكر الإسلامي بأبعاده الثالثة: التراثية الماضوية، والترائية الحديثية والإفرازات المعاصرة، تأتي من الأهمية بمكان لاعتبارات كثيرة، لعل أهمها: مقاربته ومعرفته عن كثب، والاستفادة من تجارب علمائه ومفكريه، ومعرفة خبرتهم وحذقهم في تناول إشكالاته ومسائله، وكيفية تطبيقها في واقع العرب والمسلمين، وبناء صرح النهضة الحضارية العربية الإسلامية، وهي لا غنى عنها لدارس نظريات الصعود والسقوط الحضاري، فضلا عن الأهميات الأخرى: العلمية والمعرفية والفلسفية والفكرية والثقافية والأدبية واللغوية والتاريخية والحضارية.

**ثانيا – مراحل الفكر الإسلامي**

قسّم محمد البهي الفكر الإسلامي – في كتابه الفكر الإسلامي في تطوّره – إلى مراحل أربعة، وهي:

المرحلة الأولى: مرحلة التّكوين وفيها تكوّنت اتجاهات الفكر الإسلامي الأساسية ومدارسه المختلفة فتكوّنت مذاهب العقيدة ومذاهب الفقهاء ومدارس الصوفية ومدارس الفلسفة ومدارس التّفسير للقرآن الكريم، وفي هذه الفترة تكوّنت واتسعت الفجوة بين الشيعة والسنّة. وكانت أهم أسباب تكوين هذه الاتجاهات:

– الأحداث المحليّة والانقلابات المحليّة: الّتي كانت لها الأثر القوي في نشأة مذاهب العقيدة في الإمامة.

– تسرّب الفكر الأجنبي الوثني المصري والديني الشرقي البوذي والبرهمي والزرادشتي والمانوي المسيحي واليهودي والفلسفي الإغريقي: و كان لهذا العامل الدور الأساسي في نشأة المذاهب الفلسفية والصوفية.

– مواجهة أحداث الحياة وتطوّر المجتمع الإسلامي وكان لهذا العامل الدور الأساسي في نشأة مدارس الفقه المختلفة.

المرحلة الثانية: مرحلة إعادة بناء المجتمع الإسلامي خصوصا بعد الأثر السّلبي الّذي تركته المرحلة السابقة من تمزّق وجنوح بتعاليم الإسلام إلى ما هو بعيد

عن الإسلام إضافة إلى الاعتداء من التتار والصّليبين ويمكن تحديد أهم الأسباب والعوامل الّتي وجّهت هذه المرحلة:

- التعصّب المذهبي.
- إدخال عناصر كثيرة غريبة عن الإسلام في صلبه.
- إضعاف الاجتهاد.

ويمكن ذكر أهم روّاد هذه المرحلة : ابن تيمية و السنوسي و ابن عبد الوهاب .

المرحلة الثالثة: هي المرحلة التي لم يزل الفكر الإسلامي يعيش فيها؛ وهي المرحلة التي ظهر فيها الاستعمار الغربي والاستعمار الشرقي ومحاولاته السيطرة على توجيه المسلمين فيها، وفي هذه المرحلة يتّجه الفكر الإسلامي مرّة إلى تأييد الاستعمار أو على الأقل يتجه إلى الولاء له واتجه مرّة أخرى إلى مقاومة الاستعمار الغربي والشّرقي ومقاومة تلك المذاهب الّتي خلّفها الاستعمار لمساعدته.

ومن أهم روّاد هذه المرحلة: الأفغاني و عبده و إقبال.

المرحلة الرابعة: ومنذ بداية القرن العشرين أخذ التفكير الإسلامي طابعين: طابع التجديد أو طابع الإصلاح الديني: ((دون أن تكون للحركة التجديدية الفكرية الآن صلة مباشرة بمعاونة الاستعمار على نحو ما كان الاتجاه الفكري الذي قام طول نصف القرن الأخير بمساندة الاستعمار وطبع نفسه بطابع "التّجديد" أو "الإصلاح" وهو اتجاه السيد أحمد خان ومذهب الأحمدية في الهند فقد قام كلاهما لخدمة الاستعمار)).

وفي نفس اتجاه تقييم أبعاد ونتائج التيارات التجديدية أو بالأحرى التيّارات التغريبية، لاحظ أحد الباحثين (ينظر – طه جابر، إصلاح الفكر الإسلامي، 34) في استقراء شامل للأسباب الّتي أدّت إلى فشل هذه التيارات رغم كل الدّعم الداخلي والخارجي اللّذين أحيطت بهما . إنّها لم تفهم حقيقة روح المجتمعات الّتي تريد تغييرها وهي مجتمعات رغم كل ما يظهر على قشرتها الخارجية مازالت متمسّكة بقيم دينها تمسكا تشوبه تشوّهات ولكنه قوي وراسخ، يقول الباحث : "فشل المشروع التغريبي في إحداث

النّهضة كان منتظرا وواضحا أيضا من خلال ملاحظة: مجافاته لميراث الأمّة الثقافي وعجزه عن محاكاة شخصيتها الحضارية التاريخية وتجاهله لمعادلة الأمّة النّفسية والاجتماعية وممارسات أصحابه الاستعمارية والاستغلالية".

ولتجاوز أزمة هذا الفشل تمّت محاولات لاحقة لمغازلة تراث الأمّة بأسلوب يرضي الذات المسلمة المتعبة ويسمح للمشروع بقراءة واستغلال التراث وفق منظورات أيديولوجية غريبة عن روح الإسلام وقد سمحت هذه الخطّة للمشروع التّغريبي بتقديم نفسه كبديل عملي يستقطب النّفوس الحائرة خصوصا بجرعة التعالم الّتي يحسن هذا التيّار ممارستها.

ويرى منير شفيق أن مراحل الفكر الإسلامي المعاصر كالتالي:

المرحلة الأولى: تتميّز بوجود الدولة العثمانية والدولة الصفوية في إيران والدولة الإسلامية في أفغانستان وتنتهي مع بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر بعد إخفاق الثورة المهدية في السودان 1316هـ -1898م، ويمثلها فكريا جمال الدين الأفغاني بمحاولاته إصلاح الدولة العثمانية من داخلها.

المرحلة الثانية: تبدأ بعد إخفاق ثورة عرابي وتثبيت الاستعمار في مصر والسودان وتمتدّ من العقد الثاني من القرن الرابع عشر الهجري (العقد العاشر من القرن التاسع عشر ميلادي) وتنتهي مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وتمثل هذه المرحلة فترة انتقالية مؤثّرة فيما سيأتي من مراحل. ويمثلها فكريا محمد عبده ورشيد رضا والكواكبي وأرسلان .

المرحلة الثالثة: مرحلة الاستعمار المباشر بعد الحرب العالمية الأولى وبها تمّ إلغاء الدولة العثمانية واحتلال أغلب الدول العربية وتجزئتها على أكثر من عشرين جزءا. وفي هذه المرحلة أيضا بدأ التأسيس للرّد على هذه التحديات وإعادة صياغة جديدة للمسلمين. ويمثلها فكريا بعض العاملين في المجال الإسلامي كحسن البنا.

المرحلة الرّابعة: مرحلة الدولة العربية المستقلّة بعد الحرب العالمية الثانية وبالتحديد بداية من العقد الثامن من القرن الرّابع عشر الهجري والعقد السادس من

القرن العشرين الميلادي. واستمرّ في هذه المرحلة تأثير مدرسة حسن البنا إضافة إلى سيد قطب و عبد القادر عودة وظهر حزب التحرير مع النّبهاني وباقر الصدر بالعراق وغيرهم. وانتقل الفكر الإسلامي في هذه المرحلة من الدفاع إلى الهجوم على الفكر العلماني ومواجهة التحديات المعاصرة ومع ضخامة التحديات برز مفكرون آخرون كالندوي والمودودي والخميني.

المرحلة الخامسة: ويمكن القول أنها بدأت في نهاية المرحلة الرّابعة مع انتصار الثورة الإيرانية. وتميّز الفكر الإسلامي في هذه المرحلة بمحاولة واسعة لمراجعة مسيرته وتجربته السابقة مع التوسّع في مجال الهجوم على الفكر المعادي وأيضا بمحاولة عميقة لتحقيق خطوات إيجابية في تغيير الواقع.

وفي خلال مسيرته الطويلة كان الفكر الإسلامي دائما متأثرا بالظروف الّتي حكمت الأوضاع المحليّة والعالمية وما سادها من موازين قوى أثّرت بدورها على أطروحات هذا الفكر وأساليب عمله (استراتيجية وتكتيكية) للوصول إلى أهدافه فمثلا في المرحلة الأولى كان الاتجاه العام يميل إلى نشر فكرة وحدة المسلمين لمواجهة العدو وضرورة التمكّن من العلوم والصناعة وفي المرحلة الثانية بعد النّكسة كان هناك اتجاه نحو الإصلاح التدريجي وتهدئة الصّراع المباشر مع الاستعمار.

**ثالثا – لمحة عن نشأة الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر**

بعد الحديث عن المراحل التي مرّ بها الفكر الإسلامي لا بأس أن نعطي لمحة عن تأريخ نشأة الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر حيث يُؤَرَّخ «للفكر الإسلامي الحديث» من النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي إلى نهاية الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن العشرين، هذا الحدث الذي أثر تأثيرًا كبيرًا على الفكر الإسلامي وتوجهاته.

ومنذ سقوط الدولة العثمانية شهد العالم الإسلامي انقسامات، وبدأ الاستعمار الغربي ينفذ حثيثا إلى مناطق كثيرة من العالم المسلم الذي تفككت أوصاله، وأخذ أشكالاً وصورًا متعددةً وفق خطةٍ ماكرةٍ مدروسةٍ كانت نتيجتها انقسام العالم المسلم

إلى مناطق نفوذ، ثم بدأ يخطط للقضاء على الشخصية الإسلامية، وفي هذه الأثناء كان لا بد من تقييمٍ جديدٍ للأوضاع التي تمر بها أمة الإسلام.

وكل هذه الأحداث مهدت لانطلاق حركةٍ فكريةٍ إسلاميةٍ حديثةٍ – في هذه الفترة من بداية القرن 19 الميلادي– وظهر ما يسمى «بالاتجاه الفكري الإسلامي المقاوم للاستعمار» ويطلق عليه كذلك: «حركة الإصلاح والتجديد الديني»، ومن أبرز رجالاته في هذه الفترة السيد «جمال الدين الأفغاني» (1254هـ – 1838م/1315هـ–1897م)، الذي صال وجال في البلاد الغربية وأدرك ما يكيده هناك الغرب من مكائد ومؤامرات للأمة المسلمة، كما طوف في بلاد مسلمة كثيرة؛ لكنه ساءه حالها وما تمر به من أزماتٍ ماديةٍ وفكريةٍ وسياسيةٍ؛ حكوماتها منخورةٌ يتلاعب بها المستعمر الغربي، وأوضاعها مزرية، والفرقة تعشش في جسدها، أضف إليه انتشار الجهل والظلم فيها، وفقدان الحرية... حاز كل هذا في نفسه، مما جعله يبذل كل جهده ووقته ونشاطه في الإصلاح والتجديد.

ومن رواد هذا الاتجاه الشيخ محمد عبده (1266هـ–1849م/1323هـ–1905م) تلميذ الشيخ جمال الدين الأفغاني، حيث تأثر به تأثرًا شديدًا وحمل معه هذا المشعل، وكان لمحمد عبده تلاميذ؛ أبرزهم الشيخ رشيد رضا (1865–1935م). ومن رواده رفيق عبده في الثورة العرابية: عبد الله النديم (1845–1896م) داعية الإصلاح الدينيّ، وثائر على الظلم الاجتماعيّ والاستبداد السياسيّ والتسلّط الأجنبيّ. وزامنهم المصلح السوري عبد الرحمن الكواكبي (1265هـ–1848م/1320هـ–1902م)، الذي دعا إلى إصلاح المجتمع الإسلامي والحكومة المستبدة.

أما السودان جارة مصر فقد ظهر فيها ما يسمى «بالثورة المهدية»، تزعمها محمد المهدي بن عبد الله بن فحل (1843– 21/يونيو م1885)، وانتصر فيها على جيوش الحكم «التركي – المصري»، والجيوش البريطانية التي ساندته. وقد حققت أول حكم وطني سوداني يستند على الشريعة الإسلامية كمرجعية أساسية،

باجتهادات فقه التنزيل على الواقع السوداني، وقد جمع هذا التيار بين الصوفية والوهابية، وكانت له بعض الانحرافات الفكرية.

هذا عن المشرق الإسلامي؛ أما في الغرب الإسلامي وفي ليبيا بالتحديد فقد ظهرت حركة إصلاحية ذات سمت إسلامي – ووجدت في السودان كذلك – تأسست في مكة المكرمة عام1837م على يد الشيخ محمد بن علي السنوسي المستغانمي الإدريسي الحسني (1202هـ- 1787/ 1276هـ -1859م). وتميزت هذه الحركة عن غيرها من الحركات الإصلاحية الإسلامية، خاصةً فيما يتعلق بوسائلها وأهدافها الأكثر عمقًا وفعالية. ومن زعماء هذه الحركة أسد الصحراء المجاهد الليبي عمر المختار (1275هـ-1856م/ 1350هـ -1931م) الذي قاوم الاحتلال الإيطالي.

أما في الجزائر فكانت نهضة الأمير عبد القادر الجزائري (1222هـ -1807م= 1300هـ -1883م)، وحركته الفكرية الواسعة، فهو مجاهدٌ كبير، ومن علماء الشريعة وعلوم العربية، ومن كبارِ رجال التصوف، إضافة إلى تأسيسه دولة الجزائر الحديثة – بعد أن بويع أميرًا –، ورائدِ مقاومتها ضد الاستعمار الفرنسي بين (1832 و 1847م).

أما في المغرب الأقصى فكانت هناك نهضة فكرية وحركة إصلاحية دينية من أبرز روادها الشيخ المربي محمد بن عبد الكبير بن محمد الكتاني (ت1327هـ-1909م( الفيلسوف المسلم المتفتح العقل الذي قاوم الاستعمار الفرنسي والفكر الغربي، وقام بنهضة إصلاحية فكرية ودينية وسياسية. ووالده الشيخ عبد الكبير بن محمد الكتاني (ت1333هـ) رائد الإصلاح الديني والسياسي بالمغرب. والشيخ محمد بن جعفر الكتاني (1273-1345هـ) صاحب كتاب: «نصيحة أهل الإسلام بما يدفع عنهم داء الكفرة اللئام»، قدمه للحسن الأول موضحا فيه انتكاس أحوال البلد وكيفية الخروج من الأزمة المغربية.

أضف إليهم العالم المجاهد الكبير محمد بن عبدالكريم الخطابي (1882-1963م)، الذي ربى جنوده تربية إيمانية جهادية، تحت شعار: «الإيمان والإيمان

وحده»، بعيدًا عن أي طائفية أو قبلية أو حمية الجاهلية... وجمع القبائل، وقاد مئات الجيوش لمقاومة الاستعمار الإسباني والفرنسي، فنصره الله نصرا مؤزرا، وحرر مناطق شاسعة في الريف. وكان «ماوتسي تونغ» الزعيم الصيني معجبا به. ولا يزال اليساريون والثوريون من كل جنس ومِلة يتحدثون عن جهاده ويعُدُّونه مخترع حرب العصابات الحديثة.

وعليه يمكن القول أن الحركة الفكرية الإسلامية الحديثة كانت بسبب تضافر جهود مفكري هذه الأمة في المشرق الإسلامي والغرب الإسلامي والعالم الإسلامي بأسره، ولم تكن محصورة في شخصٍ واحدٍ أو اثنين، وإن تميز شخص ما بدور فعال في هذه الحركة الفكرية.

أما الفترة التي جاءت بعد نهاية الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن العشرين، وبعد قيام الدولة العربية الحديثة في النصف الثاني من القرن نفسه، فيطلق عليها «الفكر الإسلامي المعاصر».

ومن الأهمية بمكان القول بأنه لا يمكن فصل حركة الفكر الإسلامي الحديث عن حركة الفكر الإسلامي المعاصر، لكون الأخيرة امتدَادًا للأولى مع ما فيها من تجديد وإصلاح وتغيير.

# المحاضرة الخامسة: شخصيات وأعلام الفكر الإسلامي

نتكلم في هذه المحاضرة عن شئين هما، الأول ذكر الشخصيات والأعلام، والثاني نقد لبعض تلك الشخصيات.

**أولا – شخصيات وأعلام الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر**

الذين ألفوا وكتبوا في الفكر الإسلامي أعلام وشخصيات كثر – ومن شتى مختلف الاتجاهات – وفي هذه المحاضرة سوف نركز على بعض المؤلفات التي اهتمت بالكتابة عن تلك الشخصيات وأولئك الأعلام، من ذلك كتاب: أعلام الفكر الإسلامي الحديث، تألف أحمد تيمور باشا، وقدم له محمد الفاضل بن عاشور، وركز فيه صاحبه على نخبة من رجال الأدب والدين والإصلاح.

فأحمد تيمور باشا وضع بين أيدينا في هذا السِّفرِ القَيِّم مجموعةً مُنتقاةً من أعلامِ القرنَين الثاني عشر والثالث عشر، وقد سعى في اختيارِه لهم إلى أن يكونوا خير من يُمثِّلون الوطن العربيَّ والعالَمَ الإسلامي؛ فترَى الكتابَ يَحوي أعلامًا من مصرَ والعراقِ والشامِ والشمالِ الأفريقيِّ والحِجاز. وقد اعتمَدَ في ذلك على الجمعِ الدقيقِ والبحثِ الحثيث؛ فكان يَروي ما يَسمعُ عنهم ليكونَ بذلك تحرَّى كلَّ مناحي التوثيقِ لهؤلاءِ الأعلام. والكتابُ من أعمالِ «لجنة نشر المؤلفات التيمورية»، اللجنةِ التي حملَتْ على عاتقِها توثيقَ وحِفظَ مؤلَّفاتِ فقيدِ الأُمةِ أحمد تيمور باشا.

وهذه أسماء الأعلام الذين كتب حولهم:

أعلام مصر: حسن العطَّار، محمد أبو الفتح، محمد الأشموني، إبراهيم مرزوق، محمد عيَّاد الطنطاوي، علي الليثي، محمد الطنطاوي، محمد العباسي المَهدي، أحمد أبو الفرج الدمنهوري، زين المرصفي، حسن عبد الباسط الحُوَي، رضوان محمد المخللاتي، حسن الطويل، مصطفى السفطي، أحمد الرفاعي، علي محمد الببلاوي، حسونة النواوي، عبد الله نديم، محمد عبده، أحمد أبو خَطوة، أحمد مفتاح، محمد أكمل، محمد الإدريسي، عبد الحميد نافع، أحمد خيري، إبراهيم باشا.

أعلام الشام: محمد صُنع الله الخالدي، كمال الدين الغُزي، محمد العطار، موسى الخالدي، عبد الرحمن الكزبري الثاني، أحمد الحجَّار الحلبي، مصطفى الخالدي، مصطفى المغربي الدرغوثي، محمد التميمي المغربي، أحمد الحلواني، محمود الحمزاوي، أحمد عبد الغني عابدين، محمد علاء الدين عابدين، أحمد الفحماوي، حسين عُودة، محمد المبارك الحَسني الجزائري، محمد بدر الدين، طاهر الجزائري، سليم الآمدي البخاري، محمد أبو الخير عابدين، حسن المدور البَيروتي

أعلام العراق: نعمان الآلوسي، محمود شكري الآلوسي، أعيان في بغداد.

أعلام الحجاز وحضرموت: محمد شهاب الدين المصري، عِلوي بن أحمد السَّقَاف، عثمان الراضي، محمد بن عقيل العِلوي، علي حيدر.

أعلام الأفارقة: عبد القادر الجزائري، محمد محمود التركزي الشنقيطي، أحمد بن الخوجة التونسي، محمد الخِضر حسين.

والكتاب الثاني بعنوان: من أعلام الفكر الإسلامي الحديث، لفاروق صالح باسلامة، وقد احتوى الكتاب على فصول مترجمة لقادة الفكر في شرق العالم الاسلامي، يقول المؤلف: "أرمي من خلف هذا الكتاب تبصرة فكر هؤلاء من أعلام الفكر الإسلامي الحديث الذين عرفتهم الأمة منذ قرنين مضيا من الزمن، وهما القرنان التاسع عشر والعشرون، حيث بدأت شعلة الفكر الإسلامي تغير حياة الناس، وذلك على أيدي بعض الرجال المفكرين".

وقد توزعت المحتويات في هذا الكتاب على أكثر من أربعين شخصية من السعودية ومصر والشام والعراق والمغرب وفلسطين، ومن هؤلاء: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومصطفى عبد الرازق وأبو الأعلى المودودي وأبو الحسن الندوي ومحمد الغزالي والدكتور فتحي عثمان والدكتور محمد البهي، وأحمد محمد جمال وأحمد عبد الغفور عطار.. والأمير شكيب أرسلان، والحاج أمين الحسيني، وأنور الجندي، ومحمد عمارة، ورضوان السيد، وعبد الحليم محمود، وعلي الطنطاوي، ومالك بن نبي، ومصطفى السباعي.. وغيرهم.

والجدير بالذكر أن المؤلف في هذا كتاب لا أثر عنده للتبعية التاريخية لأعلامه، وإنما يقيم الشخصيات على ضوء سيرهم وسلوكهم وعلمهم وآفاق تفكيرهم وما قدموه لأمتهم، بين الأدب والدين والمعرفة والثقافة من أعمال خالدة وإنجازات عديدة وإرث وتراث عظيم. ويبقى أن منهج الكتاب قد سلط أضواء على ملامح للشخصيات العبقرية المتعددة المواهب.

فهؤلاء وأترابهم من العلماء ورجال الثقافة والفقه والأدب والدين والفكر مثلوا الفكر الإسلامي المعاصر فقدموا العلم والمعرفة والثقافة لقرائهم بخير ما يستفاد به من العلوم الشرعية والقضايا الإسلامية، ما بين مؤلفات أدبية وكتب دعوية ومصنفات فكرية، بصور بديعة في الأسلوب فصيحة البيان في دروس ومحاضرات دينية وخطابية وفتاوى على المسار الفردي والجمعي للسائلين والمستفتين حول قضايا الحياة الدنيا والآخرة.

فالفكر الإسلامي مقصود به الفكر الذى يحافظ على قيم الإيمان ومبادئ الإسلام التي جاءت بها رسالته، كما أن المؤلف فاروق باسلامة يبين في تمهيد الكتاب أن للفكر متعلقات وصلات باللغة العربية والمناهج الشرعية والمذاهب الفقهية والتفسير والدعوة في ظل شريعة الدين الإسلامي وثقافة متطلبات الحياة المادية والمعنوية، فيأتي المفكر الإسلامي ليتتبع المسائل ويناقش الأمور والشؤون الحياتية والمطالب العامة للمجتمع الإنساني عامة والإسلامي خاصة، فقها وحديثاً وتفسيراً وسنة وتفكيرا وتأملات.

والكتاب الثالث: من أعلام الإحياء الإسلامي، لمحمد عمارة، تحدث فيه المؤلف عن الشخصيات التي كان لها أثر كبير في مشروع الإحياء الإسلامي في الوطن العربي. فقد ذكر نبذات مختصرة عن كلًا من الشيخ محمد رشيد رضا الذي حمل منار الاحياء الاسلامي إلي العالم على امتداد أربعين عام وكان أول من تصدى للعلمانية والصهيونية في فكرنا الحديث.

وإلى حسن البنا الذي تسلم الراية واسترعي الأمه لتواجه تحديات التخريب بالإسلام الشامل لكل ميادين الحياة، وإلى البشير الابراهيمي الذي حمل وإلى المغرب العربي رسالة الاصلاح بالإسلام، وإلى الشيخ شلتوت الذي مثل قمة الاحياء الفقهي في عصرنا الحديث، وإلى فقيه الشريعة والقانون الدكتور السنهوري باشا الذي وهب حياته لإحياء الشرق بالإسلام، حتي تعود الأمة لموقع الريادة بين العالمين، فقد حاول صاحبه أن يجعله كتابا جامعا يحمل رسالة الإحياء الاسلامي إلى الباحثين عن معالم مشروع التقدم والنهضة.

والكتاب الرابع بعنوان: من أعلام المصلحين في العصر الحديث لأحمد أمين، يتضمن هذا الكتاب سير لعشر من أعلام المصلحين في العصر الحديث، انتقاهم المؤلف من مختلف الأقطار العربية والإسلامية، فكان منهم؛ جمال الدين الأفغاني من بلاد الأفغان، والسيد أحمد خان والسيد أمير علي من الهند، ومحمد بن عبد الوهاب من بلاد الحجاز، ومحمد عبده وعلي باشا مبارك وعبد الله نديم باشا من مصر، وخير الدين باشا أحد رموز الإصلاح بالبلاد التونسية، ومدحت باشا من تركية ويعتبر من أشهر الولاة العثمانيين الذين حكموا بغداد وهو ذو توجه موالي للغرب، والسيد عبد الرحمن الكواكبي من سوريا والذي يعد أحد رواد النهضة العربية المعاصرة ومن مفكريها في القرن التاسع عشر، وقد نشر أمين هذا الكتاب إيقاظًا للضمائر، وشحذًا للهمم، واستنهاضًا للأمم، وابتعاثًا للأمل في القلوب بعد أن أظلمها اليأس والقنوط من المستقبل؛ لذلك رأى أمين أن يكتب هذا العمل علّ الشباب بعد قراءته لسير هؤلاء المصلحين أن يحذوا حذوهم، ويسيروا على درب خطاهم، فتكون بداية نهضة وعزة لأوطان استضعفت فاستباح أهلها الكسل واعتادوا التأخر.

**ثانيا – نقد لبعض شخصيات الفكر الإسلامي المعاصر**

كل هؤلاء الأعلام الذين ذكرناهم والذين لم نذكرهم؛ لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، ولا يسمح المقام للتفصيل والكلام في سيرتهم الفكرية، ولكن نكتفي بأحدهم؛

وهو أحمد خان الهندي. فقد جاء في تاب الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي لمحمد البهي:

تذكر مجلة "العروة الوثقى" –للسيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وقد صدر العدد الأول منها في 11 مارس سنة 1884 وصدر العدد الأخير "وهو الثامن عشر" في 17 أكتوبر سنة 1884– في أحد أعدادها وصفا لهدف الحركة التقدمية التي قام بها السيد أحمد خان في الهند فتقول: " ... لما استقرت أقدامهم –الإنجليز– في الهند وألقوا به عصاهم، ومحيت آثار السلطنة التيمورية "نسبة إلى تيمورلنك مؤسس دولة المغول في القرن السادس عشر الميلادي"، نظروا إلى البلاد نظرة ثانية فوجدوا فيها خمسين مليونا من المسلمين، كل واحد منهم مجروح الفؤاد بزوال ملكهم العظيم، وهم يتصلون بملايين كثيرة من المسلمين شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وأحسوا أن المسلمين ما داموا على دينهم، وما دام القرآن يتلى بينهم، فمحال أن يخلصوا في الخضوع لسلطة أجنبي عنهم، خصوصا إن كان ذلك الأجنبي خطف الملك منهم بالخديعة أو المكر تحت ستار المحبة والصداقة، فطفقوا –الإنجليز– يفتشون بكل وسيلة لتوهين الاعتقاد الإسلامي، وحملوا القسس والرؤساء الروحانيين على كتابة الكتب ونشر الرسائل، محشوة بالطعن في الديانة الإسلامية، مفعمة بالشتائم والسباب لصاحب الشريعة –برأه الله مما قالوا– فأتوا من هذا العمل الشنيع ما تنفر منه الطباع، ولا يمكن معه لذي غيرة أن يقيم على أرض تنتشر فيها تلك الكتب، وأن يسكن تحت سماء تشرق شمسها على مرتكبي ذلك الإفك العظيم!!

"وما قصدهم بذلك إلا توهين عقائد المسلمين: وحملهم على التدين بمذهب الإنكليز! هذا من جهة، ومن جهة أخرى أخذوا في تضييق سبل المعيشة على المسلمين وتشديد الوطأة عليهم والإضرار بهم من كل وجه فضربوا على أيديهم في الأعمال العامة، وسلبوا أوقاف المساجد والمدارس، ونفوا علماءهم وعظمائهم إلى

جزيرة "أندومان" رجاء أن تفيدهم هذه الوسيلة –إن لم تفدهم الأولى– في رد المسلمين عن دينهم بإسقاطهم في أغوار الجهل بعقائدهم حتى يذهلوا عما فرضه الله عليهم!

"فلما خاب أمل أولائك الحكام الجائرين في الوسيلة الأولى، وطال عليهم الأمد في الاستفادة من الثانية، نزعوا إلى تدبير آخر في إزالة الدين الإسلامي من أرض الهند أو إضعافه؛ لأنهم لا يخافون إلا من المسلمين أصحاب ذلك الملك المنهوب والحق المسلوب! فاتفق أن رجلا اسمه "أحمد خان بهادور" –لقب تعظيم في الهند – كان حوم حول الإنكليز لينال فائدة من لديهم، فعرض نفسه عليهم وخطا بعض خطوات لخلع دينه، والتدين بالمذهب الإنجليزي، وبدأ الأمر بكتابة كتاب يثبت فيه أن التوراة والإنجيل ليسا محرفين ولا مبدلين لينال بذلك الزلفى عندهم! ثم راجع نفسه فرأى أن الإنجليز لن يرضوا عنه حتى يقول: إني نصراني، وأن هذا العمل الحقير لا يؤتى عليه أجرا جزيلا، خصوصا وقد أتى بمثل كتابه ألوف من القسس والبطارقة، وما أمكنهم أن يحولوا من المسلمين عن الدين أشخاصًا معدودة! فأخذ طريقا آخر في خدمة حكامه الإنجليز، بتفريق كلمة المسلمين وتبديد شملهم، فظهر بمظهر الطبيعيين الدهريين ونادى بأن لا وجود إلا للطبيعة العمياء، وليس لهذا الكون إله حكيم "إن هذا إلا الضلال المبين! " وأن جميع الأنبياء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالإله الذي جاءت به الشرائع. "نعوذ الله!" ولقب نفسه بالطبيعي، وأخذ يغري أبناء الأغنياء من الشبان الطائشين، فمال إليه أشخاص منهم، تملصا من الشرع الشريف وسعيا خلف الشهوات! فراق الحكام الإنجليز مشربه، ورأوا فيه خير وسيلة لإفساد قلوب المسلمين، فأخذوا في تعزيزه وتكريمه وساعدوه على بناء مدرسة في "عليكره" وسموها مدرسة "المحمديين" لتكون فخا يصيدون به أبناء المؤمنين ليربوهم على أفكار هذا الرجل "أحمد خان بهادور".

وكتب أحمد خان" تفسيرا على القرآن الكريم، فحرف الكلم عن مواضعه وبدل ما أنزل الله!

"وأنشأ جريدة باسم "تهذيب الأخلاق" لا ينشر فيها إلا ما يضلل عقول المسلمين ويوقع الشقاق بينهم، ويلقي العداوة بين مسلمي الهند وغيرهم –خصوصا بينهم وبين العثمانيين– وجهر بالدعوة لخلع الأديان كافة، لكن لا يدعو إلا المسلمين!! ونادى: الطبيعة الطبيعة، ليوسوس للناس بأن أوروبا ما تقدمت في المدنية وما ارتفعت في العلم والصنعة وما فاقت في القوة والاقتدار، إلا برفض الأديان، والرجوع إلى الغرض المقصود من كل دين –على زعمه– وهو: بيان مسالك الطبيعة ... قد افترى على الله كذبًا!

"ولما كنا بحيال الدين في الهند –في سنة 1879– أحسسنا من بعض ضعاف العقول اغترار بترهات الرجل وتلامذته، فكتبنا رسالة في بيان مذهبهم الفاسد وما ينشأ عنه من المفاسد، وأثبتنا أن الدين أساس المدنية وقوام العمران، وطبعت رسالتنا في اللغتين الهندية والفارسية "اسمها: الرد على الدهريين".

"هؤلاء الدهريين ليسوا كالدهريين في أوربا، فإن من ترك الدين في البلاد الغربية تبقى عنده محبة أوطانه، ولا تنقص حميته لحفظ بلاده من عاديات الأجانب، ويفدي مصلحتها بروحه. أما أحمد خان وأصحابه، فإنهم كما يدعون الناس لنبذ الدين، يهونون عليهم مصالح أوطانهم ويسهلون على النفوس تحكم الأجنبي فيها، ويجتهدون في محو آثار الغيرة الدينية والجنسية ... لا لأجر جزيل ولا شرف رفيع، ولكن لعيش دنيء ونفع زهيد، وهكذا يمتاز دهري الشرق عن دهري الغرب: بالخسة والدناءة، بعد الكفر والزندقة!! ".

ويقول السيد جمال الدين الأفغاني في عدد آخر من أعداد هذه المجلة: " ... من هذا –من أسباب السياسة الأوروبية –لما سلك الإنجليز في الهند لما أحسوا بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم، لقرب عهدها بهم، وفي دينهم ما يبعثهم على الحركة إلى استرداد ما سلب منهم، وأرشدهم البحث في طبائع الملل إلى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية، وما دام الاعتقاد المحمدي والعصبية الملية سائدة فيهم فلا تؤمن بعثتهم إلى طلب حقوقهم، فاستهووا طائفة ممن يتسمون

بسمة الإسلام ويلبسون لباس المسلمين؛ وفي صدورهم غل ونفاق وفي قلوبهم زيغ وزندقة، وهم المعرفون في البلاد الهندية "بالدهريين والطبيعيين"! فاتخذهم الإنجليز أعوانا لهم على إفساد عقائد المسلمين، وتوهين علائق التعصب الديني ليطفئوا بذلك نار حميتهم، ويبددوا جمعهم ويمزقوا شملهم، وساعدوا تلك الطائفة على إنشاء مدرسة عليكرة، ونشر جريدة لبث هذه الأباطيل بين الهنديين، حتى يعم الضعف في العقائد، وتهن الصلات بين المسلمين فيستريح الإنجليز في التسلط عليهم ... ".

فحركة السيد أحمد خان، كانت تقوم على الافتتان بالعلم الطبيعي والحضارة الغربية المادية، كما يفتتن في عصرنا الحاضر بعض المفكرين بما يمسى "العلم" Science" وبالمركبات الحضارية التي قامت عليه. والافتتان بالعلم الطبيعي أو بالطبيعة كما يقال يؤدي إلى خفة وزن القيم الروحية والمثالية، وهي القيم التي تقوم عليها رسالة الأديان السماوية التي يمثلها الإسلام أوضح تمثيل، وقد يصير الافتتان بهذا العلم الطبيعي إلى إنكار كل قيمة أخرى مما لا يشاهد في الطبيعة ويدرك بالحس الإنساني. ومن هنا ربط السيد جمال الدين الأفغاني بين إلحاد السيد أحمد خان ومذهبه الدهري أو الطبيعي، مع بقاء انتسابه إلى الإسلام، ونعته بالإلحاد ... رغم ما كان يكرره "السيد أحمد خان" من القول بأنه يدافع عن الإسلام، وأنه ينبغي أن يوجد طريقا للمسلم المعاصر، يوفق فيه بين إسلامه وتقبله الحياة العصرية التي قامت إثر نهضة العلم الطبيعي!!

وقد نهج السيد أحمد خان في تفسيره القرآن الكريم، على تطبيق آياته على أساس طبيعي، مما يناقض تماما القول بالمعجزات وخوارق العادات، ولهذا جعل "النبوة" غاية تحصل وتكتسب عن طريق الرياضة النفسية، فهي غاية إنسانية طبيعية، وطريقها طريق إنساني غير خارق للعادة! ولكنه مع ذلك يقر ختم الرسالة الإلهية ببعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وفي شرحه لآيات القتال، أضعف من فرضية "الجهاد" في الوقت الحاضر. كما أنه في الآيات الأخرى الخاصة بـ"أهل الكتاب" عبر في غير لبس عن توهين الفجوة

بين أهل الكتاب من جانب والمسلمين من جانب آخر!! وطلب التعاون بين المسلمين والغربيين، ودعا إلى ما أسماه "إنسانية الأديان" أي: المعنى الإنساني العام الذي تدعو الأديان السماوية إلى اعتباره وحفظه! وهو ما يشبه اليوم فكرة "العالمية" التي تتبناها اليهودية الرأسمالية والشيوعية الدولية؛ وقد كانت من قبل تلقب بالفكرة "الماسونية"! وفي هذه الفكرة تنمحي كل الفوارق بين الأوطان والقوميات والأديان والمذاهب!!.

ولم يكن السيد أحمد خان داعية فقط لهذا التجديد، أو لهذه التقدمية في الإسلام، وإنما كان كذلك صحفيا ومؤلفا، ومدرسا ومشرفا على كلية علمية دينية "الكلية الإنجليزية الشرقية المحمدية" خرجت الكثير من شباب الهند التقدميين، وتحولت الآن إلى "الجامعة الإسلامية" في الهند بعد تقسيم سنة 1948م، وفيها تدرس المسيحية بالعناية التي يدرس بها الإسلام، مع أخذ حظ وافر من العلوم الحديثة والنظم الجامعية الغربية "الإنجليزية".

ولهذا كان للسيد أحمد خان نفوذ سياسي تربوي، يقترن بنزعته التجديدية الدينية، أثرت بدورها فيما بعد في خلق المذهب "القادياني".

# المحاضرة السادسة: من قضايا الفكر الإسلامي

نتناول في هذه المحاضرة أهم القضايا المطروحة في ساحة الفكر الإسلامي المعاصر والحديث ويكون ذلك من خلال بعض المصنفات التي اهتمت بمثل هذه القضايا، فالمتتبع لما هو مثار من قضايا يجد هناك العديد من القضايا المطروحة، نذكر منها: دعوى تطوير قواعد اللغة العربية، قضية العقل والنقل، قضية التأويل، إشكالية الأصالة والمعاصرة، قضية الهوية، قضية المواطنة، قضية التنوير، تطبيق الشريعة، الحريات العامة، قضية التحرر، حرية التعبير، حرية الاعتقاد، عقوبة الردة، قضية الحدود، قضية تحرير المرأة، التراث والتاريخ، التراث والتجديد، الجمود والتقليد، الفقه والشريعة، قضية العولمة، حقوق الإنسان، الدين والدولة، الدين والسياسة، الوحدة والتعددية، الإسلام والديمقراطية، قضية نظام الحكم، الخطاب الديني، حوار الديانات، صراع الحضارات، قضية مفهوم الثقافة، قضية التعايش، العدالة الاجتماعيّة، الإرهاب والعنف، الإسلام والحداثة.. الخ.

وقد تناول العديد من المفكرين هذه القضايا وغيرها بالبحث والكتابة والنقد حسب اتجاهاتهم ومشاربهم، ونحن هنا نذكر بعض تلك المؤلفات بشيء من البيان لأهم القضايا التي تناولتها تلك المؤلفات وعالجها أصحابها، من ذلك:

كتاب: من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر، لمؤلفه: محمد قطب، يتناول الكتاب التعريف ببعض القضايا الإسلامية الضرورية للصحوة الإسلامية؛ كموقف أوروبا من الدين، منهج دراسة الدين، قضية تطور العقيدة، مستقبل الدعوة الإسلامية، قضية الخلافة الراشدة، تاريخ الأمة، التأثير الإسلامي، الحروب الصليبية، صراع الحضارات، اقتصاد العالم الإسلامي، أطلس اقتصاد العالم الإسلامي، الأدب الإسلامي، الالتزام في الأدب الإسلامي، الفن الإسلامي، وذلك بغرض الوقوف أمامها مليا وتناول المختصين لها بالعناية الواجبة، والجهد اللازم ليخرجوا منها بمواقف واضحة ورؤية مستبصرة للحاضر والمستقبل.

كتاب: قضايا الفكر الإسلامي المعاصر، لمؤلفه: محمد سيد أحمد المسير، يستعرض "محمد المسير" في هذا الكتاب العديد من القضايا الحديثة المهمة بمنظور إسلامي معاصر، فهناك العديد من القضايا المهمة التي تمس الإنسان في جميع شئون حياته، تولدت هذه القضايا عن طريق التطور الهائل في كافة مناحي الحياة في العصر الحديث. ولأن الإسلام هو دين الفكر والعقل فهو يضم بين جنباته منهج متكامل لحياة البشرية، فقد استطاع " محمد المسير" أن يجمع بين طيات هذا الكتاب الرؤية الإسلامية لعدد من القضايا مثل: العولمة، حقوق الإنسان، ميثاق المرأة والطفل، الجهاد ومقاومة الاحتلال، والإعلام والدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. بالإضافة لعدد من القضايا العلمية المطروحة على الساحة مثل بنوك الأجنة والاستنساخ والأرحام المؤجرة وغيرها من القضايا القديمة الجديدة التي أعيد طرحها على الساحة بعد أن لبست ثوب العصرية.

كتاب: قضايا إشكالية في الفكر الاسلامي المعاصر، من إصدارات: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هذا الكتاب يمثل مستخلصات أفكار ندوات ومحاضرات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة (1986 – 1996)، وذلك أن المفكرين الإسلاميين المشتغلين بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والشرعية أدركوا التدهور الحضاري الذي تعاني منه الأمة الإسلامية في عصرنا، إذ تجتاز الأمة الآن مرحلة من العجز وفقدان التوازن وغياب الهُوية بالإضافة إلى الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، ولاحظ هؤلاء أن الأصل في هذا التدهور الحضاري هو أنه أزمة فكرية في المقام الأول، وتندرج تحتها سائر الأزمات، فقدم هؤلاء المفكرين محاولات فكرية متنوعة للخروج من هذه الأزمة، ولعل أبرزها وأكثرها توفيقا واقترابا من حاضر الأمة وتراثها وعقيدتها تلك المحاولة التي عرفت باسم "إسلامية المعرفة"، وكتب أصحاب هذه المحاولة الكتب والمقالات العديدة لتوضيح وجهة نظرهم، واستقبلها المشتغلون بالفكر والثقافة استقبالا حسنا، وهذا الكتاب يسير في هذا الاتجاه حيث جمع بعض مستخلصات أفكار هؤلاء المفكرين.

ومن تلك الملخصات التي تناولها الكتاب ما يلي: إسلامية المعرفة، العلوم من المنظور الإسلامي، كيفية التعامل مع الكتاب والسنة، كيفية التعامل مع التراث، الموقف من الفكر الغربي، قضايا تطبيق الشريعة وتدريسها، السنن الإلهية، مفهوم الحضارة في الإسلام، التاريخ الإسلامي، المؤسسة في الإسلام، الإسلام وبناء الفرد والمجتمع، قضية التربية والتعليم، قضية الاقتصاد، الإسلام والمرأة، الإعلام الإسلامي، الإسلام والفنون.

كتاب: إشكاليات الفكر العربي المعاصر، لمؤلفه: محمد عابد الجابري، يتناول الكتاب بعض إشكاليات الفكر والعقل العربي المعاصر من منظور الجابري كما يراها في حينها، وقد غلب على ذلك موضوع نقد التراث وثنائية الأصالة والمعاصرة، ورغم أن الكتاب مجموعة محاضرات ولقاءات تعود للثمانينات إلا أن كثيراً من أفكار الكاتب لا تزال حية ومطروحة بشكل جدلي واسع بين المفكرين العرب والإسلاميين.

بداية تطرق الكاتب لإشكالية الأصالة والمعاصرة ليس كاختيار بل ازدواجية بين النموذج الغربي الذي فرض نفسه وبقايا التراث العربي. ثم انتقل الكاتب إلى أزمة إبداع الفكر العربي باعتباره مجرد تكرار واجترار بعيد عن العلم، كما أسهب في تناول إشكالية التقدم والوحدة في مستقبل الفكر، وأكد على ضرورة طرح مسألة "الدولة" في الوطن العربي من أجل أعادة تأسيس فكرة الوحدة في الوعي العربي، بالإضافة إلى كون النهضة رهينة بإعادة التفكير ونقد الواقع وضرورة إعادة كتابة التاريخ كما كان في عصر التدوين، ولذا فصل في مشكلة التناقضات بين العرب والغرب في عصر التقانة، ومعاناة العرب من الجوانب الايدولوجيين، وسبب فشلنا في تحقيق نهضتنا.

وهناك كتب أخرى كثيرة تطرقت لقضايا الفكر الإسلامي المعاصر، منها:

كتاب: قضايا الفكر الإسلامي الحديث بين الأصالة والمعاصرة، لمؤلفه: محمد أحمد عبد القادر.

كتاب: الفكر الإسلامي بين الأصالة والتجديد، لمؤلفه: عبد المنعم خفاجي.

كتاب: التجديد في الفكر الإسلامي، لمؤلفه: عدنان محمد أمامة.

كتاب: أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، لمؤلفه: محمد عمارة.

كتاب: الفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر، لمؤلفه: محمد البهي.

كتاب: قضايا من الفكر الإسلامي الحديث، لمؤلفه: عبد اللطيف محمد عبد العزيز العبد.

كتاب: الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد، لمؤلفه: يوسف القرضاوي.

كتاب: الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، لمؤلفه: سعيد شبّار.

كتاب: تجديد الفكر الإسلامي، لمؤلفه: حسن الترابي.

كتاب: الفكر الإسلامي وقضايانا السياسية المعاصرة ، لمؤلفه: أحمد الريسوني.

وأُلِّف الكثير الكثير من المؤلفات في مثل هذه القضايا المتعلقة بالفكر الإسلامي الحديث والمعاصر؛ منها ما جمع بعض القضايا، ومنها ما انفرد بقضية أو أكثر.

# المحاضرة السابعة: قضية دعوى تطوير قواعد اللغة العربية

إن اهتمام الإنسان باللغة على وجه العام يرجع إلى عصور قدمية منصرفة، فقد سجل لنا التاريخ اهتمام الأمم والشعوب وبلغتهم وعنايتهم بقضاياهم . ففي الغرب – مثلا – ظهرت مدرستان مشهورتان أساسيتان، مها : المدرسة اليونانية واللاتينية، وكان عملهم اللغوي مرتبط بالفلسفة. وأما في الشرق، فقد تمثلت الدراسة اللغوية في المدرستين – أيضا – ومها: مدرسة الهنود ومدرسة العرب، وكانت الدراسة اللغوية عندم منطلقة عن الدافع الديني واهتمامهم بلغة كتابهم المقدس. فالهنود قد تفوقوا في الدراسات اللغوية بفضل الدراسة الوصفية للغة السنسكرتية. واعتبر كتاب بانيني (القرن الرابع ق م) طفرة في الدراسات اللغوية وبداية جادة لدراسة اللغة عندهم. وأما جهود العرب في الدراسات اللغوية، ففي الفترة من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادي تمثل فترة سخية في نشأة علوم اللغة عند العرب والتي نشأت تحت تأثير دافعين واضحين: – خدمة الإسلام والمحافظة على القرآن الكريم من اللحن وتيسير سبل فهمه وقراءته على غير العرب ممن دخلوا في الإسلام من الأعاجم. – خدمة اللغة العربية؛ للتغلب على الثنائية الموجودة في الواقع اللغوي الحي على ألسنة العرب المتمثل في تيار الفصحى واللهجات المختلفة.

ورغم هذا الاهتمام باللغة لم يواجه الفكر الإسلامي على مدى أربعة عشر قرنا ونيف دعوات أشد خطراً على دينهم من تلك التي تستهدف في العصر الحديث اللغة العربية الفصحى، لما للغة العربية من أهمية ومكانة في الدين الإسلامي، فاللغة العربية هي لغة القرآن والحديث والفقه، ولغة كافة العلوم الشرعية واللسانية، ولغة كل العلوم التي كان الأوروبيون يتسابقون لتعلمها، ولذا فهي ضرورية لفهم أحكام الإسلام وتطبيقها، يقول شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى: «اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة

العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ثم منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية».

وفي هذا المضمار ننقل ما كتبه أ.د. محمد رفعت زنجير في مقاله المعنون بـ "التحديات التي تواجه اللغة العربية في العصر الحديث" ومما جاء فيه ما يلي:

يأتي هذا البحث لمناقشة بعض التحديات التي تواجهها اللغة العربية في العصر الحديث، وفي مقدمتها: التحديات الداخلية، والتي تتخذ من شعار تطوير اللغة العربية ستارا لها، وقد عرض الدكتور محمد محمد حسين أبرز هذه التحديات، وهي عنده ثلاثة:

1- منها ما يتعلق بإصلاح النحو والقواعد.

2- ومنها ما يتعلق بالخط العربي.

3- ومنها ما يتعلق بالأدب العربي.

يقول طيب الله ثراه: "فلنعد إلى عرض هذه الدعوات الهدامة التي تستهدف قتل العربية الفصيحة في شيء من التفصيل. نستطيع أن نحصر هذه الدعوات في شعب ثلاث: تتناول أولاها اللغة، فيطالب بعضها بإصلاحها، ويطالب بعضها الآخر بالتحول عنها إلى العامية. وتتناول ثانيتها الكتابة، فيدعو بعضها إلى إصلاح قواعدها، ويدعو بعضها الآخر للتحول عنها إلى الحروف اللاتينية. وتتناول الشعبة الثالثة: الأدب، فيدعو بعضها إلى العناية بالآداب الحديثة، وما يتصل منها بالقومية خاصة، ويدعو بعضها الآخر إلى العناية بما يسمونه (الأدب الشعبي) ويقصدون به".

**- لمحة تاريخية عن جذور الدعوة إلى تطوير اللغة العربية**

وفيما يلي موجز لتاريخ الدعوة إلى تطوير اللغة العربية أو هدمها واستبدالها:

1 - بدأت الدعوة في أواخر سنة 1881م، حين اقترح (المقتطف)؛ (مجلة المقتطف 1293هـ - 1371 هـ / 1876 - 1952م) كتابة العلوم باللغة التي يتكلمها الناس في حياتهم العامة.

2 – هاجت المسألة في أوائل سنة 1902م، حين ألف أحد قضاة محكمة الاستئناف الأهلية في مصر من الإنجليز وهو القاضي وِلْمور كتابا عما سماه لغة القاهرة، وضع لها فيه قواعد، واقترح اتخاذها للعلم والأدب، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية، وتنبه الناس للكتاب حين أشاد به المقتطف، وفي ذلك الوقت كتب حافظ قصيدته المشهورة:

رجعت لنفسي فاتهمتُ حَصاتي    وناديتُ قومي فاحتبستُ حياتي

3 – ثارت المسألة من جديد، حين دعا إنجليزي آخر، كان مهندسا للري في مصر، وهو السير وِلْيَم وِلْكوكس سنة 1926م إلى هجر اللغة العربية، وترجم أجزاء من الإنجيل إلى ما سماه: اللغة المصرية، ونوه سلامة موسى بالسير وليم ولكوكس وأيده.

4 – انتشرت الدعوة حين اتُخذت اللهجة السوقية في المسرح الهزلي، ثم انتقلت إلى المسرح الجِدّي، حين تجرأت عليه فرقة تمثيلية تتخذ اسما فرعونيا، وهي فرقة رمسيس، وظهرت الخيالة (السينما) من بعدُ، فاتخذت هذه اللهجة، ولم يعد للعربية الفصحى وجود في هذا الميدان.

5– تسللت الدعوة إلى مجمع اللغة العربية، فظهرت سلسلة من المقالات عن اللهجة العربية العامية كتبها أحد أعضائه وهو عيسى اسكندر المعلوف، وكان يتبنى قبل فكرة الدفاع عن اللهجات السوقية، وقال إنه يشتغل بضبطها وتقييد شواردها لكتابة العلوم.

6 – تقدم أحد أعضاء المجمع وهو عبد العزيز فهمي ثالث الثلاثة الذين بني عليهم الوفد المصري سنة 1943م باقتراح كتابة العربية بالحروف اللاتينية، وشُغل المجمع ببحث اقتراحه عدة جلسات، امتدت خلال ثلاث سنوات، ونشر في الصحف، وخصصت الحكومة جائزة مقدارها ألف جنيه لأحسن اقتراح في تيسير العربية.

7– وكان مصطفى كمال الذي أنهى السلطنة العثمانية هو الذي استبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية التي كانت مستخدمة في اللغة التركية قبل ذلك،

يدفعه بذلك عنصرية بغيضة وكره للعرب ودينهم، ثم جاء المقلدة في بلاد العرب يريدون أن يحذوا حذوه فيما فعل.

**- مناقشة موضوعية للدعوة إلى تطوير اللغة العربية**

إننا يجب أن نفرق بين تطوير اللغة وبين تطوير طرق تعليم اللغة بإعداد المدرس الجيد، والمنهج الصالح، فالثاني أمر لا غبار عليه، والخلاف هو حول تطوير اللغة، سواء كان بالخروج على قواعدها ونبذ القواعد القديمة، أو بإعادة التقعيد من جديد، فنحن نرى أن اللغة العربية بوضعها الحالي قادرة على استيعاب العصر، وليست بحاجة إلى صياغة جديدة لقواعدها، وليس أدل على قدرة العربية من وجود أدباء كبار نبغوا في هذا العصر، ومن بينهم شعراء المهجر، وقد عبر هؤلاء عن موضوعات عصرنا قاطبة، مستخدمين الفصحى، ولم نعرف واحدا منهم اشتكى من ضعف الفصحى، أو عدم قدرتها على التعبير، أو ثقلها على النفوس، فلا يشتكي من هذه الفصحى إلا ضعيف العقل والثقافة، لأنها تمثل روح هذه الأمة وفكرها، والأمم تعتز دائما بتراثها وماضيها، ومن المفارقة العجيبة أنه "بينما نجح اليهود في إحياء لغتهم العبرية الميتة، واتخاذها لغة للأدب والحياة، كان بعض المفتونين من العرب ينادون ولا يزالون بأن اللغة العربية الفصيحة لغة ميتة، وينشرون في ذلك المقالات الطوال، المكتوبة بالعربية الفصيحة التي يزعمون موتها".

إنهم "يزعمون أن قواعدها صعبة معقدة، وفي اللغات الأوروبية الحيّة ما هو أشد منها صعوبة وتعقيدا كالألمانية، ويقولون إن الشاذ فيها من غير القياسي كثير، والشذوذ في صيغ الأفعال وفي صيغ الجمع، والتأنيث وفي المصادر يملأ اللغات الأوروبية كلها، والشواهد عليه لا تحصى، وقالوا إن الكتابة فيها غير ميسرة، مع أن مطابقة الصوت المسموع للصورة المقروءة هي في العربية أوضح منها في الإنجليزية والفرنسية".

وينادي المستغربون: "ويقولون إن اللغات الأوروبية قد تطورت، فيجب أن تتطور لغتنا كما تطورت لغاتهم، وهناك فرق بين التطور والتطوير، تتطور اللغة بأن تُفرض عليها قوانينٌ قاهرةٌ هذا التطور، أما التطوير فهو سعي مفتعَل إلى التطور، وهو إرادة إحداث التطور دون أن تكون له مبررات تستدعيه، والتطور لا يُسعى إليه، ولا يُصطنع، ولكنه يفرض نفسه، فلا نجد بدا من الخضوع له. وأي نعمة وأي مزية في تطور اللغات الأوروبية حتى نسعى إلى افتعال نظيره في لغتنا؟ إن هذا التطور كان نكبة على أصحابه، قطعهم أمما بعدما كانوا أمة واحدة، ثم إنه لم يحكم على تراثهم القديم المشترك بالموت، بل هو لا يزال يقضي بين الحين على التراث القومي لكل شعب من هذه الشعوب بالموت" .

**- كيف يكون التطوير بشكل إيجابي؟**

إن تطور اللغة بلغ ذروته في العهد النبوي، حيث نزل القرآن والعرب في قمة الفصاحة وأعلى البلاغة، فجاء القرآن وتبوأ بإعجازه عرش البلاغة العربية، يقول مصطفى صادق الرافعي: "فقد بلغ العرب في عقد القرآن مبلغا من الفصاحة لم يعرف في تاريخهم من قبل، فإن كل ما وراءه إنما كان أدوارا من نشوء اللغة، وتهذيبها، وتنقيحها، واطِّرادِها على سنن الاجتماع، فكانوا قد أطالوا الشعر وافتنوا فيه، وتوافى عليه من شعرائهم أفراد معدودون، كان كل واحد منهم كأنه عصر في تاريخه، بما زاد من محاسنه، وابتدع من أغراضه ومعانيه، وما نفض عليه من الصَّبغ والرونق، ثم كان لهم من تهذيب اللغة، واجتماعهم على نمْط من القرشية يرونه مثالا لكمال الفطرة الممكن أن يكون، وأخذهم في هذا السمت، ما جعل الكلمة نافذة في أكثرها، لا يصدها اختلافٌ من اللسان، ولا يعترضها تناكر في اللغة، فقامت فيهم بذلك دولة الكلام، ولكنها بقيت بلا ملك، حتى جاءهم القرآن".

إن القرآن هو المثل والنبراس، وهو الدليل والهادي، وهو المنهج والدستور لهذه الأمة، وعلى جميع الدعوات التطويرية أن يكون هدفها الأول . لو كانت مخلصة . أن تقرب الناس من بلاغة القرآن، وأن تحطم كل الحواجز التي تعيق عن فهم القرآن،

وأن يكون هدفها إعادة بناء الذوق العربي ليكون أهلا للتفاعل مع مضمون الذكر الخالد، مستعدا لتلقي إشراقاته من جديد، ليكون المسلم المعاصر أهلا لهداية البشرية في عصر الفلسفات المادية والإباحية، حيث يرنو العالم كله إلى من ينقذه من حلكة الدجى الذي هو فيه، فالعالم يرقد في التيه على حد قول الدكتور محمد إقبال:

إن هذا العصر ليل فأنـر أيها المسلم ليل الحائريـن
وسفين الحق في لج الهوى لا يرى غيرك ربان السفين
أنت كنز الدر والياقوت فــي موجة الدنيا وإن لم يعرفوك
محفل الأجيال محتاج إلى صوتك العالي وإن لم يسمعوك

فهل بعد مملكة القرآن مزيد لمجتهد؟ حتى يأتي المستغربون في هذا الزمن ليهدموا تلك المملكة بهدم اللغة والدعوة إلى العامية بحجة الإصلاح اللغوي، أو إلى هدم علوم اللغة التي أقل ما يقال فيها بأن الأئمة الذين دونوا تلك العلوم كانوا يعتقدون بأنهم يتقربون إلى الله بالتقعيد لتلك العلوم؟

إن التطور الإيجابي يكون بإحياء اللغة في الدرجة الأولى، ووضع نماذج الأدب القديم أمام المعاصرين ليحتذوها، وهو ما فعله إمام الشعراء في هذا العصر الحديث محمود سامي البارودي حين عمد إلى جمع المختارات الشهيرة (مختارات البارودي) لتكون زادا وقبسا للشعراء والأدباء المعاصرين فيقتفوها، وأما ما سوى ذلك فهو فوضى وضياع، وأما ما يفعله بعض المحسوبين على الشعر من التحرر من الوزن والقافية والنحو باسم التطور فهو أمر يخشى أن يضيع اللغة وأهلها.

وبعد الإحياء يمكن أن تأتي أمور أخرى منها التعريب والاستفادة من آداب الأمم الأخرى بالترجمة، ومن التقنيات الحديثة فيما يتعلق بعلم الأصوات، وغير ذلك مما قد يسهم بشكل فعال في إصلاح واقعنا اللغوي المعاصر.

**- تأثر بعض الإصلاحيين بفكرة تطوير اللغة العربية**

هنالك بعض المدارس الإصلاحية والتجديدية التي ترغب في تطوير واقع الأمة والنهوض بمشروع إصلاحي حضاري يؤهل هذه الأمة لقيادة ركب الحياة من جديد،

وقد تأثرت تلك المدارس بفكرة تطوير اللغة العربية، ولكن التطوير هنا لا يعني بالضرورة الهدم أو الاستبدال، وإنما هو تطوير إيجابي في الغالب، إذ يتعلق بفكرة التعريب للمصطلحات الأجنبية، والاستفادة من آداب الأمم الأخرى ولا سيما في مجالات النقد والمسرح والقصة ونحو ذلك، وتسهيل قواعد الكتابة والنحو، وهذه أمور يمكن الانتفاع بها، وهناك من يدعو إلى عمل معاجم جديدة تختلط فيها الفصحى بالعاميات العربية، وهي دعوة نتحفظ عليها ونرفضها ولو كان صاحبها يريد التسهيل والتيسير، وسنناقش هذه الأفكار جميعا:

**أولا – الحاجة إلى تعريب المصطلحات الأجنبية**

تعريب المصطلحات الأجنبية وبخاصة في ميدان العلوم أمر تقتضيه طبيعة العصر، وذلك حتى لا يضطر أبناء العرب لدراسة العلوم باللغات الأجنبية، يقول الأستاذ عمر الدسوقي: "إن اللغة العربية في حاجة إلى نهضة وتجديد وإحياء وتعريب كثير من العلماء، حيث انتشرت الحضارة ووجدوا أنفسهم إزاء آلاف من الكلمات والتعبيرات الأجنبية لا يستطيعون نقلها إلى اللغة العربية"، ويضيف ناقلا عن الشيخ إبراهيم اليازجي: "يا ليت شعري ما يصنع أحدنا لو دخل أحد المعارض الطبيعية أو الصناعية ورأى ثمة من المسميات العضوية من أنواع الحيوان وضروب النبات، وصنوف المعادن ... وأراد العبارة عن شيء من هذه المذكورات، ثم ما هو فاعل لو أراد الكلام في ما يحدث كل يوم من المخترعات العلمية والصناعية، والمكتشفات الطبية والكيماوية، والفنون العقلية واليديوية وما لكل ذلك من الأوضاع والحدود، والمصطلحات التي لا تغادر جليلا ولا دقيقا إلا تدل عليه بلفظ مخصوص، ولا ريب أن الكثير من ذلك لا يتحرك به لسان، ولا يعهد له بين ألواح معجمات اللغة ألفاظا يعبر بها عنه، ولا يغنيه في هذا الموقف كثرة أسماء الأسد والسيف والعسل والعبير" .

فاللغة إذا بحاجة إلى تعريب كثير من الكلمات والمصطلحات الوافدة، وليس في الأخذ عن الأعاجم وتعريب مصطلحاتهم أي عيب في ذلك، فقد فعل ذلك السلف

وهم في عز سلطانهم، وهو أمر تمليه ضرورة الحياة المعاصرة، يقول فتحي زغلول باشا في هذا الصدد: "أخذ العرب العلوم عن أهلها، ونقلوها إلى لغتهم، فلما وجدوا منها استعصاء في بعض المواضع ذللوها، وأخضعوا الغريب منها إلى أحكامها... فنسينا نحن أن زماننا غير زمانهم، فكانوا أصحاب حول وطول، وذوي مجد وسلطان، ونحن على ما نعلم من الضعف والانزواء، على أنهم في عزهم وبعد فخارهم وتمكنهم من أنفسهم لم يغتروا بلغتهم، فلم ينفروا من العجمة لأنها عجمة، بل استخدموها من حيث وجب الأخذ بها تمكينا للغتهم، وحذرا من أن يصيبها الوهن إذا قعدوا عن مجاراة تيار التقدم وهم أولو الرأي فيه، وخوفا من أن يعيقهم الجمود فيها عن حفظ مركزهم العظيم بين الأمم التي كانت تعاصرهم".

ويضيف الكاتب محددا غرضه من التجديد الذي يريده: "عليكم بالتقدم، فادخلوا أبوابه المفتحة أمامكم، ولا تتأخروا فلستم وحدكم في هذا الوجود، ولا تقدم لكم إلا بلغتكم، فاعتنوا بها، وأصلحوها، وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون، ولكن لا تكثروا من الاشتقاق الخارج عن حد القياس والمعقول، ولا تشوها صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك، أو التجوز، ثم لا تقفوا بها موقف الجمود والعجمة تهددها على ألسنة العامة، وهي لا تلبث أن تدخل على ألسنة الخاصة، أقيموا في وجه هذا السيل الجارف سدا من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة، والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين".

ونتيجة لاهتمام العلماء بالتعريب فقد بدأت جهود فردية بهذا الصدد، وانتهت تلك الجهود بعمل جماعي منظم انبثق عنه مجمع اللغة العربية، يقول عمر الدسوقي موجزا ملابسات قيام المجمع في تلك الفترة: "وقد حاول بعض العلماء قبل الحرب العالمية الأولى تكوين مجمع لغوي يضع كلمات جديدة، أو يعرب أو يشتق من الكلمات القديمة لتساير اللغة موكب الحضارة الجارف، وقد تكون هذا المجمع فعلا قبل الحرب العالمية الأولى برئاسة أحمد لطفي السيد، ووضع بضعا وعشرين كلمة اشتهر بعضها ومات كثير منها، ثم انفض واجتهد كثير من المعربين في وضع

كلمات جديدة، ولكن المسألة صارت فوضى، فقد توضع أكثر من كلمة لمدلول أجنبي واحد، وأخيرا أنشئ مجمع فؤاد الأول للغة العربية في 13 من ديسمبر 1932 وقد سمي في سنة 1954 مجمع اللغة العربية، وأهم أغراضه المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر، وأن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية، وأن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة، وأن يبحث كل ما له شأن في تقدم اللغة".

**ثانيا – ترجمة آداب الأمم الأخرى والاستفادة منها**

والتجديد لا ينحصر بالتعريب ونحوه، بل يشمل الاستفادة من آداب الأمم الأخرى والفنون الأدبية والنقد الأدبي، يقول الأستاذ عمر الدسوقي: "وهذا هو البستاني ينقل إلينا إلياذة هوميروس شعرا في مستهل هذا القرن... وقد أعطى البستاني بإخراجه الإلياذة شعرا نموذجا قوي الأسلوب مشرق الديباجة للشعراء الذين يحاولون نظم الملاحم، أو نظم المسرحيات، وكيف يتصرفون ويتحللون من نظام القصيدة، ونحن لا يعنينا الآن الخوض في قيمة الإلياذة وأثر نقلها في اللغة العربية، بقدر ما يعنينا تلك الطريقة التي ترجمت بها، والمقدمة التي كتبت لها، فقد كانت درسا جديدا في مستهل هذا القرن لدراسة الأدب والنقد الأدبي، على غير ما ألف نقاد ذلك الوقت من الاهتمام بالألفاظ والمعاني".

واللغات كثيرا ما تتشابه في قوانينها العامة، لذا فإن الاستفادة من آداب الآخرين وقوانين لغاتهم أمر لا بأس به، وقد فعله السابقون أمثال عبد الحميد الكاتب كما ذكر أبو هلال العسكري، يقول: "ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات، ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى، ألا ترى إلى عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحولها إلى اللسان العربي؟ فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيح اللفظ، والمعرفة بوجوه الاستعمال "

واستفاد النحاة أيضا من فلاسفة اليونان في تقسيم الكلام، يقول الدكتور إبراهيم أنيس في حديثه عن أجزاء الكلام: "قنع اللغويون القدماء بذلك التقسيم الثلاثي من اسم وفعل وحرف، متبعين في هذا ما جرى عليه فلاسفة اليونان وأهل المنطق من جعل أجزاء الكلام ثلاثة، سموها: الاسم والكلمة والأداة".

ولكن الاستفادة لا تعني بالضرورة أن نطبق على اللغة العربية كل القوانين والأحكام التي تخص غيرها من اللغات كالإنكليزية مثلا، فلكل لغة شخصيتها وقوامها وخصائصها التي تميزها عن غيرها في النهاية، والتشابه في بعض الأمور لا يعني التطابق في كل شيء، وما يسري على لغة ما قد لا ينطبق بالضرورة على غيرها، والأمر في الآداب والفنون والنقد كذلك.

**ثالثا – تسهيل قواعد الإملاء والنحو العربي**

هناك من يدعو إلى تسهيل قواعد الإملاء العربي، جاء مثلا في مقال بعنوان: (إسلامية المعرفة وتفعيل التعليم العالي بين النظرية والتطبيق) للدكتور الفاضل عبد الحميد أبو سليمان ما يلي: "صعوبة اللغة العربية: ومن الأمثلة على بعض مصاعب اللغة التي لا يبدو أن لها في عصر الثقافة للجميع حاجة هو تعدد قواعد كتابة الهمزة في الإملاء العربي، في أول الكلمة وفي وسطها وفي آخرها، حيث يشترط فيها معرفة حركتها وحركة الحرف الذي قبلها، وهو ما لا يشترط في كتابة باقي حروف الكلمات العربية، ولشدة تعقد هذه القواعد وصعوبتها حتى على من يصيب معرفة حركة الهمزة، فإن جلهم يخطئون في كتابتها صحيحة، وكأنما قد وضعت هذه القواعد لإثبات جهل الناس بها، لا لتقويم إملائهم في كتابتها... ولا فائدة من إثقال اللغة وعامة المتعلمين بها غير تعثر إملائهم والضغط على ذاكرتهم بسببها".

والكاتب الفاضل لا يدعو إلى إصلاح قواعد الإملاء فقط، بل يذهب إلى أبعد من ذلك، حيث يضيف الكاتب داعيا إلى إعادة النظر في صياغة قواعد النحو: "ومن المهم كذلك إعادة النظر في بناء قواعد اللغة وتعليمها... ومثل هذا يدعو إلى

إعادة النظر في أمر كثير من قواعد النحو، وما نراه أن تعطي حركة الإصلاح اللغوي الأهمية لبناء التراكيب وسياق الأداء الذي يؤثر على إدراك المعاني بعيدا عن الشكليات والتراثيات والمهنيات التي تتعلق بالمعاني في بناء قواعد اللغة وتعليمها في عصر الثقافة للجميع".

ونناقش ما أثاره هنا، أما موضوع صعوبة كتابة الهمزة فأمر يدركه المربون، وهم يحاولون تذليله لا بنسف قواعد الإملاء وتبديلها، وإنما بدراسات علمية ميدانية لمعرفة الصعوبات، وأسبابها، وطرق تقويمها، واقتراح الأساليب العملية لتلافي ضعف الطلبة في كتابة الهمزة على وجه الخصوص والإملاء بشكل عام، ونذكر في هذا الصدد ما قد عرضه الأستاذ فتحي الخولي الموجه التربوي للغة العربية، وهو تجربة تربوية لمعرفة الأخطاء في كتابة الهمزة وعلاجها، وذلك في الفصل العاشر ضمن كتابه دليل الإملاء وقواعد الكتابة العربية، وذكر الحلول المقترحة والتي تتمثل في مجملها بكثرة الكتابة والتمارين والاستعمال، واقترح بشأن بعضها "كتابتها بخط عريض لكل مجموعة من اللوافت تعلق على جدران الفصول المدرسية وفي الممرات وفي كل مكان يجتمع فيه التلاميذ في المدرسة، على أن تكون الكلمة في صورها الإعرابية المختلفة ويكون كذلك بالتقوية في قواعد اللغة العربية، فمن المظنون أن التلميذ إذا عرف الصور المختلفة لكتابة الكلمة وعرف الوضع الإعرابي لها، يكتب كتابة صحيحة وخاصة إذا انتهى ذلك كله بقاعدة سهلة أو مجموعة سهلة من القواعد يمكن تطبيقها عليها".

على أنه يمكن لنا الاستفادة من بعض الرخص في كتابة الهمزة، وقد ذكر الأستاذ الخولي قرار مجمع اللغة العربية بشأن كتابة الهمزة المتوسطة في بعض الحالات، وهو: "تعتبر الهمزة متوسطة إذا لحق بالكلمة ما يتصل بها رسما، كالضمائر وعلامات التثنية والجمع، مثل جزأين وجزاؤه، ويبدؤون، وشيؤه". وقرر المجمع أيضا أن الهمزة في وسط الكلمة إذا كان ما قبلها ساكنا "وكان هذا الساكن

حرف مد رسمت مفردة"، وعليه كلمة سموءل تكتب هكذا كما في المثال: (أودع امرؤ القيس دروعه عند السموءل)

ولا شك أننا نحترم رأي المجمع، ونرى الالتزام به، ولكن تسهيلا على الناس ودفعا للحرج نرى تجويز ما فعله القدماء أيضا فلا نخطئهم، وإنما نجيز الوجهين، ففي الكتب القديمة نجد قرأوا الهمزة على الألف وزيدت واو الجماعة، والواو ليست من أصل الكلمة، وكذلك نجد كلمة السموأل الهمزة فيها على الألف، وقد وردت مرات كثيرة في المعاجم بهذا الصدد، فإذا كتبت الهمزة على السطر فهي على الصورة الجديدة لقواعد الإملاء المتطورة، وإذا كتبت على الألف فهي على الصورة القديمة، ولا ينبغي تخطئة من كتبها على الألف، طالما أن القدماء فعلوا ذلك وارتضوه، فهو وجه مقبول، ومن ثم تكون هنالك سعة في حدود اللغة العربية.

وأما دعوة الدكتور أبو سليمان إلى مراجعة قواعد النحو، فهي دعوة جيدة، ومعمول بها لدى الوزارات والإدارات المعنية بتطوير المناهج في العالم العربي، فالمناهج في مراجعة مستمرة وتطوير مستمر، وينبغي أن نذلل الصعاب للناشئة ونحبب لهم النحو بعيدا عن الملابسات والتعقيدات والاختلافات بين مدارسه المختلفة، ولكن ينبغي أن نوضح هنا بأن تذليل الصعاب وتعليم النحو بأسلوب ميسر يقربه إلى نفوس الناشئة شيء، وتعديل قواعد النحو من جذورها وخلق نحو جديد غير ما يعرفه العرب في تاريخهم شيء آخر، وهو أمر مرفوض، ولا أظن أحدا يقبله من أبناء العرب الغيورين على لغتهم ودينهم.

**رابعا – إقحام العامي مع الفصيح في معجم واحد!**

هناك من يدعو إلى إقحام الكلمات العامية مع الفصحى بحجة شيوعها والحاجة إليها، يقول إلياس أنطون إلياس تحت عنوان: ضرورة التساهل في قبول الكلمات الجديدة ما يلي: "وخير لنا أن نجري على سنن العصر ونشايعه ولو على خطأ من أن نرتد إلى الماضي ونأخذ بلغته وأساليبه ولو كان على حق... ثم إن في اللهجات الكلامية للبلاد العربية المختلفة كثير من الألفاظ المشتركة التي تعبر أصدق تعبير

عن حاجاتنا في العصر الحاضر ولكننا درجنا على التنكر لها وعلى تسميتها عامية أو سوقية أو دخيلة أو مبتذلة، مع أنها قد وصلت إلينا منذ مئات السنين من عرب يحبون لغتهم كما نحبها، ولست أرى مبررا لهذا التنكر إلا إذا كان الغرض جعل اللغة وقفا على طائفة خاصة". ولا وجه لقوله بالأخذ بالشائع ولو كان خطأ، وترك الماضي ولو كان على حق، لأن الشائع اليوم قد يتغير غدا، ويصبح مهملا ويشيع مكانه لفظ جديد، فالشيوع ليس أمرا ثابتا ولا مستقلا عن عوامل الزمن والبيئة والحياة، فلا بد من شيء ثابت ترتكز عليه اللغة العربية، وهذا لن يكون سوى معجمها القديم الذي صفاه العلماء من الشوائب فكان كالإبريز الخالص.

وفي خطوة أكثر جرأة ذهب الدكتور بسام ساعي في بحثه: (نحو معجم جديد للألف الثالثة) إلى ضرورة وضع معاجم للعامية، حيث رأى "أننا نحيط معاجمنا بهالة من القدسية القاتلة، وأنه لا بد من فتح الحدود بين الفصحى والعامية، وعبر عن تقديره للبصريين لأخذهم بالقياس الذي رأى أن المجامع اللغوية قد أهملته، وأشار إلى أن تلك المجامع مطالبة باستقصاء العاميات من المحيط إلى الخليج، مع الاستناد إلى مجموعة من الضوابط... ودعا إلى تشكيل هيئات صغيرة في كل قطر لإعداد معجم لعاميته، وأخرى كبيرة تدرس تلك المعاجم وتنتقي منها، للخروج بمعجم جديد لتلك اللغة الوسيطة، وأشار إلى أن العامة هم المبدعون الحقيقيون للغة شئنا أم أبينا".

وهذه الدعوة خطيرة جدا، لأن إقحام العامي مع الفصيح سيفسد الفصيح ولن يصلح العامي، مما يسبب فساد اللسان العربي الذي وحد العرب عبر آلاف السنين، وهو ما عبر عنه الشاعر هاشم الرفاعي بقوله: واختلفنا في الورى ألسنة يجهل المصري لفظ الحلبي

فاللغة الفصحى السليمة تجعلنا نفهم القرآن والسنة والشعر الجاهلي ونلتحم مع التراث قبل آلاف السنين، كما تسهل التفاهم بين أقطار العروبة، وكافة الجاليات والأقليات العربية والإسلامية حول العالم، وهي اللغة التي يتعلمها ملايين المسلمين

في البلاد التي تنطق بغير العربية، فكيف نفسد صفاءها بإقحام العاميات معها، يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي: "متى انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الأرض تحت تأثير عامل أو أكثر من العوامل السابق ذكرها، وتكلم بها جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمدا طويلا، فلا تلبث أن تتشعب إلى لهجات، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات في سبيل تطورها منهجا يختلف عن منهج غيرها، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها وبين أخواتها حتى تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها، وبذلك يتولد من اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللغات يختلف أفرادها بعضها عن بعض في كثير من الوجوه، ولكنها تظل مع ذلك متفقة في وجوه أخرى ... وقد اتسعت مسافة الخلف بين اللهجات المتشعبة عن العربية، حتى أصبح بعضها شبه غريب عن بعض، فلهجة العراق ولهجات شمال أفريقيا في العصر الحاضر مثلا يجد المصري بعض الصعوبة في فهمها، غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوي بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين".

ثم إن لدينا أكثر من عشرين دولة عربية، والعاميات تختلف داخل القطر الواحد من مدينة لأخرى، يقول الأستاذ أحمد الشايب: "فأهل مصر لهم عاميتهم، وأهل العراق لهم عاميتهم، وكذلك المغاربة، كما أن لأهل الصعيد لغتهم العامية التي تخالف لغة سكان الشمال، الذين يختلفون هم أيضا في اختلاف عاميتهم باختلاف الأقاليم، ومعنى هذا توشك أن تكون هي اللغة القومية لكل قطر من أقطار الشرق العربي" وكثيرا ما يحمل اللفظ أكثر من معنى، وقد يكون مساغا في مكان ومرفوضا في آخر، فأي عبء على دارس العربية أكبر من هذا؟ وهي أن يلم بلهجات الأمة العربية من المحيط إلى الخليج والعاميات التي فيها، ثم إن العاميات مختلفة من بلد إلى آخر ومن زمن إلى آخر فكيف نختار منها ما نريد؟ وما هو مقياس الاختيار؟ أليست العودة إلى الفصحى هي الأفضل من التشتت وراء العاميات واللهجات الشائعة في الأقطار العربية؟

وللأسف الشديد بدأنا نجد جامعات ودور نشر ومؤسسات ثقافية وأكاديمية تتبنى مشاريع دمج الفصحى بالعامية، ووضع قواميس للعاميات في كل قطر وكل مدينة عربية، وذلك كما يقول أحمد الشايب: "إما لأنها طور من أطوار التاريخ اللغوي والأدبي والاجتماعي، وإما لأنها قد تكون أساسا لهذه اللغات الإقليمية التي قد ينتفع بها فيما بعد كما يرى بعض المفكرين".

ولا أدري ماذا سيفعل طالب درس العربية إذا وضعنا أمامه عشرات القواميس المختلفة للهجات العربية والعاميات المنتشرة في الأقطار العربية ثم طلبنا منه أن يلم بها، بل ماذا سيصنع الطالب العربي إزاء هذا الركام من الكلمات العامية وقواميسها، ألا يعني هذا أن العربية الفصحى ستكون في خطر، بل إن الذوق العربي والبلاغة العربية والحس الأدبي سيكون في خطر، وذلك يعود لسببين يتعلقان باللغة العامية:

(أحدهما: شيوع الخطأ اللفظي، والخروج على قوانين النحو والتصريف وعدم التحرج في قبول كل دخيل أو أعجمي من الألفاظ والتراكيب، حتى هجر فيها النحو العربي، وخضعت العبارات لصور أجنبية في تأليف الجمل وتكوين الأساليب. وثانيهما: ما غلب على معانيها من التفاهة والعرف، فأغلبها أوامر ونواه وأخبار عادية تتصل بالحياة الجارية، وتتكرر في كل وقت، وكل يوم مما لا يستحق درسا ولا تقييدا)

إن الدعوة إلى العامية تجعل الأمة العربية مرشحة لتمزق ثقافي قد يكون أشد إيلاما من تمزق وحدتها السياسية؟

**- كيف نرفع من شأن لغتنا ونطور تعليم اللغة العربية؟**

إن اللغة هي هوية الأمة الحضارية، والتمسك بها والسعي إلى إحيائها وتطوير الدراسات حولها دعامة من أولى دعائم النجاح الحضاري لكل أمة تسعى أن يكون لها مستقبل مشرق في الغد القريب، وإذا أردنا التقدم في استخدام اللغة وتعليمها، فنحن بحاجة إلى أمور، نذكر منها:

الأول: إيجاد النص اللغوي المعاصر الذي ينبغي أن يكون سهلا وميسرا في الخطوة الأولى.

ثانيا: ينبغي الاستفادة من القرآن والحديث وخطب السلف الصالح، ففيها مدد عظيم للفصحاء والبلغاء، يقول الشاعر القروي رشيد سليم الخوري في هذا الصدد: "فعلموا القرآن والحديث ونهج البلاغة في كل مدارسكم وجامعاتكم، لتقوم بالفصحى ألسنتكم، وتتقوى ملكاتكم، ويعلو نفسكم، وتزخر صدوركم بالحكمة، وتشرق طروسكم بساحر البيان".

ثالثا: تنمية المهارات اللغوية لدى المتكلم الذي ينبغي أن يكون متلافيا لأخطاء الكلام، والاستفادة من تقنيات التعليم في هذا الصدد.

رابعا: تعريب المصطلحات العلمية بشكل دائم وتوحيد جهود التعريب في العالم العربي، وتعريب آداب وعلوم الأمم المتقدمة للاستفادة منها في آدابنا وواقعنا المعاصر.

خامسا: إيجاد المعاجم والقواميس العصرية وتزويدها باللوحات والرسوم التوضيحية، وتطوير هذه المعاجم بشكل دائم.

سادسا: تعاون كافة أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة في هذا الصدد، وإبعاد شبح العاميات التي تهدد الفصحى في العالم العربي.

سابعا: التزام البلديات والمؤسسات وكافة أجهزة ومرافق الدولة والمجتمع على مستوى العالم العربي باستخدام العربية الفصحى وبخاصة في أسماء الطرق والإعلانات العامة.

ثامنا: إعادة صياغة العقل العربي بما يعزز الشخصية الحضارية للإنسان العربي والتأكيد على الهوية وعدم الانجراف الحضاري مع تيار العولمة الذي بات يهدد ثقافات الأمم والشعوب جميعا.

تاسعا: اللغة جزء من حياة الناس العامة وتراثهم الثقافي، وتفعيل الدور الحضاري للأمة مطلوب حتى تنهض اللغة وعلومها برفقة بقية العلوم الإنسانية

والميدانية والمعملية والتجريدية، فلا يمكن أن تتم نهضة في جانب واحد من حياة الأمة دون بقية الجوانب، لأن النهضة حركة متكاملة، وكلٌّ يتقاسمه الأجزاء، وليس أجزاء بمعزل عن الكل. يقول الدكتور إبراهيم أنيس: "وتتبع اللغات الأمم في صعودها وهبوطها، وفي تطورها وتغيرها، إذ لا وجود للغة بغير المتكلمين بها، ولا تحيا إلا بحياة أبنائها، فكل تطور في حياة الأمة يترك أثرا قويا واضحا في لغتها".

وهذا يتطلب منا أمورا كثيرة، وفي مقدمتها العمل معا كفريق جماعي من أجل البحث في عيوب المناهج القائمة، وطرق تقويمها، والسبل النافعة لإعداد المعلم الناجح الذي يستوعب تحديات العصر ويتخلق بأخلاق المهنة، ويكون له من الصبر وقوة الإرادة ما يستطيع معه مواصلة رسالة نشر اللغة العربية. ثم يأتي دور الإرادة الفاعلة للأمة بأسرها، كل بحسب موقعه، من أجل نهضة شاملة تحتل الثقافة منها حصة الأسد، ويكون للغة العربية الحظ الأكبر من تلك الحصة، لأنها وعاء فكرنا الحضاري، ونبض حياتنا الاجتماعية، وأملنا المشرق في مستقبل حضاري واعد.

# المحاضرة الثامنة: القرآن الكريم مصدرا للمعرفة والحضارة

**- الوحي مصدر للمعرفة الحقّة**

إنّ من الأمور الواضحة عندنا أن الوحي مصدر للمعرفة الحقة، وهذا أمر لا يجادل فيه مسلم قط؛ إلا أن الواقع العلمي والتعليمي الآن عندنا لا يعتمد الوحي عملياً مصدراً للمعرفة أصلاً، وهذه مفارقه كبرى.

ورغم ما سبق ذكره من خصائص الوحي المعروفة التي تجعله يمثل مركزاً متميزاً من مصادر المعرفة - إلا أنّ هنالك أموراً قد ساهمت مساهمة كبيرة في إقصاء هذا الوحي عن مضمار المعرفة، وهذه الأمور بعضها يتعلق بعوامل داخلية نحو نظم التعليم عندنا من جهة وكوننا متلقين للعلم عن الغرب دون فحص ولا تمحيص من جهة أخرى. أما العوامل الخارجية المتعلقة بالفكر الغربي نفسه فمنها سيادة العلمانية من جهة وتصور الفكر الغربي الضيق للعلم والوجود من جهة أخرى؛ وتفصيل ذلك كالآتي:

1 - العوامل الداخلية لإقصاء الوحي كمصدر معرفي والتي منها؛ نظم التعليم حيث انقسم إلى ما هو ديني وما هو غير ديني (دنيوي) وبهذا انفصل التعليم الديني عن التعليم الدنيوي، ونظام التعليم الدنيوي قد نشأ من تقليد مناهج الغرب فأصبح المتعلمون يتعاملون مع معطيات العلوم الوافدة كمسلَّمات لا تقبل النقاش دون معرفة بخلفيات هذه المعطيات، وذلك بسبب التبعية للغرب، حيث أن نظام التعليم عندنا باعتبار أننا متلقين للعلم من الغرب قد ساهم مساهمة فاعلة في إبعاد الوحي كمصدر للمعرفة.

2 - العوامل الخارجية لإقصاء الوحي والتي منها سيادة العلمانية، مع شيوع التصور الغربي الضيق للعلم والوجود، رغم أن الوحي مصدر للمعرفة عند المسلمين وتكلم عن حقيقة العلم والوجود بأسره بما يجلي الصورة الحقّة إلا أنهم لا يتعاملون مع هذه الحقيقة علمياً وواقعياً.

وقد أثبت الواقع والعجز العلمي عن معرفة حقيقة العديد من القضايا رغم التقدم العلمي المشهود والملحوظ، ما يبين حاجة العلوم المعاصرة إلى الوحي وعدم الاكتفاء بالمادية المجردة التي تفصل العلوم والتجارب عن مصدرها الموثوق من قبل خالقها عز وجل.

ولهذا ذكر علماؤنا الأقدمون – كما سبق – أنّ الوحي يشتمل على كافة العلوم إما تفصيلاً أو تأصيلاً؛ أيّ: إما بتفاصيلها أو على الإجمال، ولا زال الوحي يؤكد أن عجائبه لا تنقضي؛ وإنّ العلماء كلما أمعنوا النظر فيه خرجوا بحقائق علمية في غاية الدقة.

ولما كان الأمر كذلك فقد فقدت المعرفة – باستبعاد الوحي – رافداً من أهم روافدها فدخلت في أزمة خانقة؛ ولم تقتصر هذه الأزمة على العلوم الاجتماعية والإنسانية التي باتت هذه الأزمة فيها واضحة ظاهرة؛ وإنما تعدتها إلى العلوم الطبيعية التي يتوهم الكثيرون أنها بمعزل عن هذه الأزمة من جهة، وأن علاقتها بالدين والوحي ليست بالمباشرة كعلاقة العلوم الاجتماعية والإنسانية من جهة أخرى.

وكما سبق وأن ذكرنا فإنّ عجز منهج المعرفة الإسلامية كما هو اليوم هو السبب في عجز فكر الأمة عن إصلاح حالها والتصدّي للتحديات التي تواجهها، فجوهر الأزمة هو أزمة في فكر الأمة الإسلامية، وهذه الأزمة تندرج تحتها سائر الأزمات السِّياسية والاقتصادية والاجتماعي... ومن أسبابها الجهورية البعد عن مصدر الوحي.

**– القرآن الكريم المصدر الأول والأهم للعلم والمعرفة**

يعتبر القرآن الكريم المصدر الأول والأهم للعلم والمعرفة حيث كونه البيان المصور والمفصل لكل ما يتعلق بالكون والإنسان والدنيا والآخرة ... والمجيب عن كل الإشكالات والتساؤلات التي تواجه فكر الإنسان وعقله والمثير لكل القضايا التي تؤهل فكر الإنسان لاكتشاف السنن. فالقرآن الكريم ما نزل إلا لحسم الهوية المعرفية للإنسان.

فالقرآن الكريم مصدر للمنهج والمعرفة ومقومات الشّهود الحضاري والعمراني، وإنّ استدعاء القرآن الكريم في إطار واقع عالمي متغيِّر بوعي جديد أمر ضروري لا مفر منه، وهذه الضرورة تكمن أهميتها في محاولتها تصحيح كثير من المفاهيم المتعلقة بالتعامل مع القرآن الكريم في الموضوعات الإسلامية كخطوة أولى يؤسَّس بموجبها الوعي المنهجي الإسلامي المعاصر وإعادة التعامل مع القرآن كمصدر منهجي ومعرفي للعلوم الاجتماعية والطبيعية سيجعل هذه العلوم قادرة على مد الحياة الإنسانية بما يخرجها من أزماتها، وسيعيد الارتباط بين هذه العلوم والقيم ويربطها بمقاصد الحق وغائية الخلق.

حيث أنّ القرآن الكريم يمدنا بالمعارف اليقينية حول ما وراء هذا الوجود وما يتجاوز أبعاد الزمان والمكان، فالمعلومات التي يقدَّمها القرآن الكريم صادقة ويقينية، والمصادر الأخرى مهما كانت فائدتها فهي ليست مصادر يقينية ولا يمكن أن تقدَّم إجابات واضحة ودقيقة للتساؤلات المطروحة.

كما يمدنا القرآن الكريم بمعارف يقينية حول كليات السنن الإلهية السارية في هذا الوجود خصوصاً ما اتصل منها بالإنسان المكرَّم المستهدف بهداية الوحي الكريم. كما يستوعب القرآن الكريم في تفصيلاته حقيقة الإنسان في أصله وخلقه وتكوينه وحركته على الأرض ومصيره المستقبلي.

**- العلم والمعرفة في القرآن الكريم**

يقول تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، ويقول تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾. فأحد المقاصد الكبرى للرسالة الإسلامية التي يحملها القرآن الكريم هي تحرير العقل من القيود التي تفرضها الخرافة وغيرها، وذلك بإعمال العقل وسؤال أهل العلم والنظر في البراهين العقلية والحسية، ولهذا يكثر في القرآن الكريم ذكر مادة عقل بتصريفاتها المختلفة وألفاظ التفكر والتدبر واللب والنهى والفؤاد والقلب والبصيرة والنظر إلى غير ذلك.

فالعلم في القرآن يشمل كل العلوم سواء كانت علوم الدين أم علوم الدنيا، كل ما يكشف للإنسان حقيقة تعلمه بما لم يكن يعلم أو تزيده علما بما علم فهو من العلوم، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. وهنا يتحدث القرآن عن علم النجوم والاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وعلم عدد السنين والحساب متعلق بعلم الفلك.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ فالعَالِمِين هنا هم العلماء العارفون باختلاف اللغات واختلال الألوان والأجناس وهذا يتعلق بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، كما استعمل القرآن العلم في معرفة مختلف مظاهر الطبيعة من الماء والسماء والثمرات والجبال والناس والدواب والأنعام واختلاف ألوانها.

ولهذا نجد في القرآن الكريم آيات تشير إلى العلم بمفهومه الدنيوي يتصل بمعاش الإنسان، كتعليم الله سبحانه لآدم الأسماء كلها، وتعليم داوود استعمال الحديد، وتعليم كيفية الدفن للميت، ومن ذلك تعليم الله سبحانه أنبياءه علوماً معجزة كتعليم سليمان منطق الطير... وفي قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، إطلاقية في الدلالة تشمل علوماً كثيرة تتصل بمعاش الإنسان وسعيه في الحياة الدنيا.

وقد أشار القرآن إلى صناعات شتي في علوم ومعارف مختلفة، مثل صناعة الحديد في الجانب العسكري، والجانب المدني، بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، فقوله: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يشير إلى الصناعات الحربية، وقوله: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ يشير إلى الصناعات المدنية، وقد علّم الله نبيه داوود صناعة الدروع: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾، وقال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾.

ومثل ذلك: الصناعات الغذائية كما في قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

ومنها: الصناعات المتخذة من الأنعام: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾.

ومنها: صناعات التجميل والزينة: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾. ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.

ومنها: صناعة السفن، وقد أجادها نوح عليه السلام: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾.﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾. ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

ومنها: صنعة البناء وقد تعلمها إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وهما اللذان بنيا أول بيت وضع للناس: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. وكما هو في الرجل الصالح مع موسى عليها السلام حين أقام الجدار في القرية التي لم تطعمهم، ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

ومنها: صناعة السدود العظيمة كما فعل ذو القرنين: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾.

ومنها الصناعات التي علمها الجن لسليمان: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

فالعلوم والمعارف التي جاء بها القرآن وتحدث عنها يشمل كل أنواع العلم والمعرفة، بداية من العلم بالوحي بما أنزل الله من حلال وحرام وسائر أنواع الفقه والتشريعات والأحكام، ثم تعداه للعلوم الأخرى كالعلم الكوني، والعلم الرياضي، والعلم الطبيعي، والعلم الاقتصادي، والعلم الإنساني... فهذا كله وغيره يدخل في العلم الذي جاء به القرآن وأشار إليه وعلمه للإنسان وأثنى عليه وعلى أهله، فما علينا إلا أن ندرك بأن القرآن الكريم هو الذي أرسى المفاهيم الأساسية وحث على التزود من العلم والنهل من المعرفة للتيقن بأن وراء هذا الكون خالق صمد وأنه أنزل كتابه لخدمة البشرية جمعاء.

# المحاضرة التاسعة: السنة النبوية مصدرا للمعرفة والحضارة

لا بد من الوعي بحقيقة السُّنة النبوية باعتبارها المصدر التفسيري الملزم للنص القرآني. والسُّنة النبوية هي المنهاج التفصيلي في حياة المجتمع والفرد المسلم، وهي تمثَّل القرآن مفسراً والإسلام مجسَّداً، وفي هذا المضمار كتب الشيخ يوسف القرضاوي كتابا بعنوان: "السنة مصدرا للمعرفة والحضارة"، تحدّث فيه عن السنّة النبوية كمصدر للتشريع الإسلامي، بعد القرآن الكريم، والسنة كمصدر للمعرفة والحضارة، استندت إليه الأمة في طريق نهضتها، وبنت عبر تعاليمه صرح تميزها و منبر أستاذيتها قرونا طويلة.

ويرى الشيخ أن الجانب التشريعي في سنة الحبيب المصطفى صلى الله عليه و سلّم قد لاقى من الاهتمام العظيم ما هو أهل له، لأهميته في شريعتنا وملتنا، واعتباره مفسرا وشارحا ومشرعا في ديننا الإسلامي، بعد كتاب الله الكريم – وهو لا خلاف عليه بين المسلمين كافة – إلاّ أن الجانب المعرفي والجانب الحضاري في السنة المطهرة، كالأحاديث المتعلقة بالصحة والتربية والاقتصاد والبيئة والنظافة ... والجانب الحضاري الذي يرتقي بالإنسان من عالم الهمجية والتخلف والتراجع الإنساني إلى مراقي التحضر والتمدن والعطاء الأدبي والروحي والأخلاقي، و هو ما استلزم أن يقوم الإسلام كمنهج حضاري متميز، بالارتقاء بالبشرية، وتزكية النفوس، والحض على التعلم المتدرج الحكيم، هذا الجانب لم يلق الاهتمام المطلوب كرسالة حضارية و انسانية يجب مضاعفة الجهد فيه.

فإذا كانت مصادر المعرفة عند الماديين الذين يقيسون كل شيء بالمقاييس المادية المحسوسة، والعقلية المدركة فقط، فإن المسلم يحترم العقل والحس والإدراك، وهو ما يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، ونحن كأمة مسلمة نؤمن بالوحي الرباني الذي يقوّم الخطأ البشري في حال وقوعه في الضلال، ومجانبته الصواب.

هذا الجانب الحضاري في السنة المطهرة ما يزال بحاجة إلى بحث أكثر واهتمام أكبر، لكي تحصّل الإنسانية أكبر قدر ممكن من الجواهر النبوية الحكيمة، ولنأخذ مثلا تلك الأحاديث التي تحتوي على توجيهات صحية واجتماعية وعلمية، تمت العناية ببحثها، والتعمق فيها، فجاءت النتائج مبهرة للمسلمين و غير المسلمين على حد سواء، و أسهمت في توصل البشرية إلى ما ينفعها، وكانت السبب في دخول الكثيرين من غير المسلمين في الإسلام.

يقول الشيخ يوسف القرضاوي في مقدمة الكتاب: "كما أن الله قد بعث رسوله الكريم، ليصنع به أمة ربّانية متميّزة، سمّاها الله، (أمّة وسطا) و(خير أمة أخرجت للناس)، وهي أمة الصراط المستقيم، صراط التوازن والتكامل، بين الروح والمادة، بين الدنيا والآخرة، بين العقل والوحي، بين المثالية والواقعية، بين الفردية والجماعية، بين الحرية والمسؤولية، بين الابداع المادي، والالتزام الإيماني، فقامت على أساس هذه التعاليم حضارة عالمية فذة، جمعت بين الربانية والإنسانية، بين العلم والايمان، بين الرقي والأخلاق، هي الحضارة الإسلامية، التي سادت العالم قرونا، واقتبست من حضارات الأقدمين، وهذبتها وأضافت اليها، وابتكرت الجديد المفيد، في علوم الدين، ومعارف الدنيا، فلا عجب أن يجد الباحث المدقق في مصادر السنة الكثير الطيب، مما يشبع نهمه، ويلهب حماسه في مجال البحث عن السنة، بوصفها مصدرا للمعرفة والحضارة".

وقد جاء الكتاب في ثلاثة أقسام:

القسم الأول تناول الجانب التشريعي من السنة، وبيان ما كان منها للتشريع، وما لم يكن للتشريع، وما كان للتشريع العام أو للتشريع الخاص، وللتشريع الدائم أو للتشريع العارض، وقد حاول الشيخ أن يتخذ موقفاً وسطاً بين فئتين من المسلمين ترى إحداهما أن كل ما ورد في السنة يعد تشريعاً ملزماً لكل الناس في كل الأزمان وفي كل الأقطار وفي كل الأحوال، وتريد الأخرى أن تعزل السنة عن شؤون الحياة

العملية كلها فالعادات والمعاملات وشؤون الاقتصاد والسياسة والإدارة والحرب ونحوها يجب أن تترك للناس، ولا تدخل السنة آمرة ولا ناهية ولا موجهة ولا هادية.

أما القسم الثاني فقد جاء تحت عنوان: السنة مصدراً للمعرفة وقد بيّن فيه الشيخ أن مصادر المعرفة عند الماديين تنحصر فيما يدركه الحس من الماديات، أو يدركه العقل من المعقولات. وإنهم لا يؤمنون بأي مصدر بعد ذلك.

وأشار إلى أننا نحن المسلمين نؤمن بهذين المصدرين، ونعُد الحواس والعقل أدوات مهمة، بل نعماً جليلة... ولكننا نؤمن بأن هناك مصدراً آخر للمعرفة يعلو على هذين المصدرين ويسددهما إذا أخطآ الصواب أو ضلاّ السبيل، وهو الوحي الإلهي.

كما تحدث الشيخ القرضاوي عن السنة بعدِّها مصدراً للمعرفة كما هي مصدرٌ للتشريع. سواء كانت هذه المعرفة دينية، أو معرفة إنسانية اجتماعية، ثم عرض مجموعة من المعارف الغيبية التي وردت في السنة النبوية فيما يتعلق بأخبار الآخرة وعلامات الساعة ونحوها. وعرض لأحاديث مبشرات وفصل في هذا الجانب من المعارف.

وفي الجانب الثاني من المعارف الإنسانية عرض المؤلف لأربع من هذه المعارف، وأورد عدداً من الأحاديث مِمّا له علاقة بها وهي التربية وركز فيها على التربية البيئية، وعناية السنة بالبيئة وبالشجرة والتشجير والخضرة والثروة الحيوانية، وكذلك الصحة حيث أورد العديد من السنن التي تهتم بصحة الناس ونظافتهم وتحثهم على النشاط والحركة. وتحث على التداوي. وتهتم بالصحة النفسية وغير ذلك مما فيه اهتمام بصحة الإنسان.

وكذلك الاقتصاد حيث أورد عدداً من الأحاديث في الحث على الإنتاج وتحسينه والمحافظة على مصادره وفي ترشيد الاستهلاك وفي مجال التوزيع وفي مجال التداول، ثم تحدث عن السنة والعلم التجريبي وتهيئة المناخ النفسي والعقلي للبحث العلمي.

أما القسم الثالث من هذا الكتاب فجاء بعنوان: السنة مصدراً للحضارة، وقد شمل بابين كبيرين: السنّة والفقه الحضاري، والسنّة والسلوك الحضاري، ولكل منهما فروع وفصول وقد أشار فضيلة الالشيخ إلى أن الحديث عن السنة والبناء الحضاري، يُرجأ إلى فرصة أخرى لأن الحديث عنه يطول.

ومن كل ما سبق نستخلص الآتي:

السنة النبوية مصدر أساس من مصادر الحضارة الإسلاميَّة حيث أقام رسول الله على الله عليه وسلم الدولة الإسلاميَّة في المدينة واضعًا اللبنات الأولى لنظام الحكم والإدارة والاقتصاد والحرب في الإسلام حيث كانت المدينة المنورة المركز الأول للحضارة الإسلاميَّة وفيها ولدت وتمت واكتملت. ومنها انتقلت الحضارة الإسلاميَّة مع الفاتحين المسلمين لتصل إلى كل مكان وصلوا إليه.

فالسنة النبوية مصدر للمعارف الحياتية التي لا تنحصر في الجانب التشريعي فقط، بل فيها من المعارف والعلوم الجمة، والفوائد المهمة، ما هو جدير بالبحث والدراسة. فمن هذه الجوانب المتشعبة، والفوائد المتنوعة، الجانب الحضاري، الذي ملأ به دعاة الحضارة والمدنية . في هذا العصر . الدنيا صراخاً، وكأنهم هم الذين ابتدعوه، وأخرجوه للناس.

فكان من الواجب التنبيه بأننا مطالبون، باستخراج هذه الدُّرر المتعلقة بالقيم الحضارية في السنة النبوية، انطلاقاً من تراثنا المفعم بالمفاهيم والقيم الحضارية والمدنية، وذلك تعريفا للمسلمين، وإرشاداً لهم، لهذه الكنوز الثمينة، والمنابع الصافية، التي تتضمن المبادئ العامة، والمنطلقات الأساسية، التي تنهض بالأمة، وترقى بها لمدارج الكمال البشري المنشود.

إنَّ من المعلوم بداهةً أنَّ من الممارسات الحضارية في السنة النبوية، مكانة العلم والمعرفة ومدى اهتمام السنة بهما، لذلك تبلورت فكرة مصدرية السنة للعلم والمعرفة في بيان وتوضيح أن السّنة النبوية المطهرة قد سبقت كل النظم الوضعية، المعاصرة منها والقديمة، باهتمامها بزوايا متعددة من العلم والمعرفة.

ولقد تميّزت الحضارة الإسلامية بخصائص جعلتها فريدة بين الحضارات الأخرى من حيث شمولها ومقدرتها على إسعاد الإنسانية جمعاء، ومن هذه الميزات عقيدة التوحيد، والأصالة في البناء، وميزة أخرى مهمة تتمثل في إعطاء الدور المحوري للعقل والعلم. إذ أن الحضارة الإسلامية جعلت العقل والعلم مرتكز الخطاب الشرعي المتوجه للإنسان، باعتباره كائناً عاقلاً مدبراً، بغض النظر عن ملابسات الزمان والمكان والجنس واللون.

لذلك فلا غرو أن تتضح بعضُ القيم الحضارية – للدَّارس المتحقق، وللقارئ المُنْصِف – واضحةً وجليةً في مدى اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم البالغ بضرورة طلب العلم والمعرفة، وحضه المسلمين على البحث عنه، وأخذه من أي وعاء كان. مع العلم أن التقوى، هي جماع الخير، ومنبع الفضائل، ومعدن الأخلاق الفاضلة ولا تتأتى لأحد من الناس، إلاّ بإتباع صادق مخلص للنبي صلى الله عليه وسلم.

من ذلك يستنتج الترابط الوثيق بين العلم والعمل، والثمرة المرجوة من ذلك، فلا فهم للعلم إلاّ بالأدب، ولا قيمة للعمل إلا بالعلم، ولا ثمرة للعمل إلاّ بالإخلاص لله عز وجل. حيث أن توجيه المجتمع نحو العلم والعمل به أمر ضروري ومطلوب، لأنه الباب الذي يلج منه المجتمع الإنساني من البداوة إلى الحضارة، ومن الفوضى إلى التخطيط.

أمثله على أهمية العلم من السنة النبوية:

من ذلك ما حصل في فداء أسرى بدر مقابل التعليم، فإذا دلفنا لمعرفة القيم الحضارية في عملية الإفراج عن أسرى بدر مقابل التعليم فنلحظ موقف النبي صلى الله عليه وسلم الحضاري الفريد غير المسبوق منه في عقل العرب، بجعل فداء إطلاق سراح ذوي العلم من أسرى غزوة بدر الكبرى، أن يعلّم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين، بتعليمهم القراءة والكتابة اللتين كانتا يُفْتقرُ إليهما في الجزيرة العربية وبخاصة في المدنية المنورة. فنستنتج أن عملية توجيه النبي صلى الله عليه وسلم وحثه على أن يكون فداء بعض أسرى بدر مقابل التعليم، مسألة تتوازن تماماً

مع مسألة فداء الأسرى لأنفسهم بالمال. وفي ذلك من تقدير العلم والمعرفة والتشجيع على تعليم القراءة والكتابة والسعي في طلبها ما لا يحتاج إلى توضيح.

من هذا الفداء فقد كانت الحكمة النبوية ناجحة من حيث اهتمامها بالبُعد الحضاري فيما يتعلق بالعلم والمعرفة والحث عليهما. فمن نتائج هذا البعد الحضاري أن أنشأ رجالاً أفذاذاً مثل الصحابي الجليل زيد بن ثابت الأنصاري الخزرجى، الذي كان ممن عُلم الكتابة ضمن غلمان المدينة المنورة فداءً لبعض أسرى بدر. لذا فإننا نرى من المهم جداً أن يفتخر المسلمون ويعتزوا بأن المصطفى صلى الله عليه وسلم فتح أول مدرسة للتعليم ومحو الأمية في الجزيرة العربية.

أيضا فقد توالت السنة النبوية . تتراءى . في إظهار القيم الحضارية، كمثل الذي نجده في عملية الإحصاء والعدِّ حيث أعطت نماذج متعددة لاستخدام هذا الأسلوب الحضاري العلمي التخطيطي الدقيق، وهذه النماذج تتعدد بحسب نوع الاستخدام المطلوب. فمثلاً حال التخطيطات المستقبلية التي لا تستغني عن الإحصاءات الدقيقة في تحديد وتحقيق الأهداف، وتقدير الموانع المحتملة في طريق الوصول إليها، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الحالة يأخذ مما يمكن للبشر أخذه في إنجاح هذه الخطط، والتي تعتبر بُعداً حضارياً سامقاً، كاختياره صلى الله عليه وسلم بلاد الحبشة أرضاً للمهجر، وهجرته صلى الله عليه وسلم للمدينة المنورة.

ونموذج آخر يتضح فيه بعض الأساليب التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بالإحصاء والعد. كاستعداده صلى الله عليه وسلم لغزوة بد الكبرى، وإحصائه صلى الله عليه وسلم وعده المسلمين. فمن ذلك كلِّه نستخلص أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ملماً بالطرق العلمية الإحصائية والتخطيطية الدقيقة، في كل حياته الحافلة بمثل هذه المواقف المذكورة آنفاً . مما يُؤخذ منها دورس كثيرة، لإرشاد المجتمعات الإنسانية إلى حياة أكثر تحضراً ورقياً، باستخدام الوسائل الأكثر دقة في التقديرات، وتحليل البيانات، في كلِّ المجالات المتعددة، وما إلى ذلك من الظواهر المتجددة في الحياة البشرية.

وينبغي كذلك أن لا ننسى أن السنة النبوية أشارت أيضاً إلى قيم حضارية في منحيً آخر يتعلق بإنشاء الترجمة والاهتمام باللغات، لعلمها أن الترجمة هي الوسيلة الوحيدة لتبادل العلم والمعرفة والحضارة والآراء والأفكار بين الأمم ولها فوائد جمة نظراً لحاجة المجتمع الإنساني لهذا النشاط، طالما أنه متعدد في أجناسه ومختلف في ألسنتِهِ، فلا يمكن الاستغناء عنها.

وهو أنه صلى الله عليه وسلم بعد ما خرج من بلده مكة إلى بلدة جديدة ذات قوميات مختلفة ولغات متباينة، أحس صلى الله عليه وسلم بضرورة الترجمان بينه وبين هؤلاء القوم الآخرين، لسلامة العلاقة، وإمكانية التعارف الصحيح، وكذلك الحيطة والحذر من مكر الماكرين وحيل المتربصين، أو تفادي إصدار الأحكام دون معرفة بأقوال المتهمين.

وهذا يعني أن الترجمة تقوم بدور عالمي مهم وفاعل في كل المجالات الحياتية. حيث أسهمت بفعالية في نقل وتلاقح الثقافات والآداب والعلوم، عن طريق تبادل المعلومات العلمية والحضارية بشتى أنواعها وأجناسها. مما يعتبر هذا بُعداً حضارياً شامخاً وراقياً، نبّهت إليه السنة النبوية المطهرة. حيث وضعت اللبنة الأولى لهذا البناء الذي أصبح سامقاً ومهماً في عصرنا هذا. مما يزيدنا يقينا واطمئناناً بأن في السنة النبوية المطهرة من كنوز العلم والمعرفة وما يتعلق بهما من القيم الحضارية، ما يجعلنا نشدُّ المئزر بحثاً عنها، لنعلن للعالم كلِّه بأن الإسلام دين يَصْلُح لكل زمان ومكان.

فما أحرى بنا أن نعود لتراثنا الإسلامي وبخاصة في السّنة النبوية المطهرة. فالسّنة النبوية المطهرة منبع غني بكنوز دفينة في الأعماق، فلابدَّ من استخراج هذه الكنوز وعدم الاكتفاء بما استخرجه الأوائل، جزاهم الله خيراً، وأنها مصدر عظيم وغني للحضارة الإنسانية فضلاً عن الحضارة الإسلامية، كما أنّ للحضارة الإسلامية . بمرجعية الكتاب والسنة النبوية المطهرة . ميزات عديدة وخصائص متفردة وهي قابلة للتطور ضمن إطارها الثابت المعين، تواكباً مع الرّقي الحضاري للأمم و الشعوب.

فالسنة النبوية، قد سبقت كل النظم الوضعية المعاصرة منها، والقديمة، باهتمامها بزوايا مختلفة من العلم والمعرفة. كما تأكَّد أن العلم ليس محصوراً في العلوم الشرعية فحسب، بل المراد به كل علم يقرب الإنسان إلى خشية الله تعالى وعبادته وذكره. وحتمية توجيه المجتمع نحو العلم والعمل به أمر ضروري ومهم لأنه الباب الذي يلج منه المجتمع الإنساني من البداوة إلى الحضارة ومن الفوضى إلى التخطيط والنظام.

فما علينا إلا أن نصب جهودنا وإمكاناتنا المختلفة في البحث في متطلبات وفقه الأحاديث النبوية، لاكتشاف واستخراج ما فيها من العلوم والمعارف الإنسانية الراقية، حتى نتأهل لمواجهة كل تحديات الحضارات والفلسفات الإنسانية الأخرى، غير المؤسسة على الوحي الإلهي، والمنهج النبوي.

# المحاضرة العاشرة: الأفكار النهضوية الإسلامية

**- النهضة هي الإشكالية المركزية في الفكر العربي الحديث والمعاصر**

قضية النهضة من أهم القضايا التي شغلت وتشغل فكر المفكرين الإسلامين لأكثر من قرنين من الزمن، وقد عاد طرح شعار (النهضة) من جديد بعد هزيمة (1967م)، وبعد أن هيمن شعار (الثورة) في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، كما أن فشل الأنظمة العربية المستمر في تحقيق أهداف النهضة العربية، وما استجد من تحديات العولمة، وما صاحبها من مشروعات تأتي من خارج الوطن العربي مثل: مشروع الشرق الأوسطي الكبير في بداية التسعينات، إضافة إلى ما يقدمه الاتحاد الأوروبي من اقتراحات وبرامج في إطار التعاون الأورو متوسطي، أو ما يعرف بإعلان (برشلونة) عام (1995م) وفي سياق ما يسمى مكافحة (الإرهاب) تزايدت الدعوات من الخارج والداخل للتغيير والإصلاح؛ كل العوامل السابقة جعلت من مشروع النهضة دفاعاً عن الوجود والهوية، وليس اختياراً من أجل التقدم والوحدة ومواجهة الطغيان الداخلي والخارجي فحسب.

وعندما نطلع على ما كتبه المفكرون من المسلمين حول قضايا النهضة نجد العديد من المؤلفات والمقالات في ذلك، نذكر نماذج منها:

كتاب: مشروع النهضة بين الإسلام والعلمانية دراسة في فكر محمد عمارة ومحمد عابد الجابري لمؤلفه محمد علي أبو هندي.

الكتاب يعالج قضية مرجعية مشروع النهضة الحضارية في الفكر الإسلامي المعاصر الذي هو محور الخلاف بين «الإسلاميين» و«العلمانيين» في العالم الإسلامي، فالكثيرٌ من قضايا الخلاف المرتبطة بمرجعية النهضة تعود إلى أبعاد عقدية ترتبط بالإيمان بفاعلية نموذج حضاري ما، وترجيحه على غيره، أو إلى أبعاد ثقافية متأثرة بالشائع من الأفكار والمناهج والأطروحات النهضوية، وقد تعود إلى أبعاد سيكولوجية أساسها الخوف من قيام سلطة دينية مماثلة لسلطة الكنيسة في

التجربة الحضارية الغربية. وزاد من حدة المخاوف ممارسات العنف لدى بعض الجماعات الإسلامية في السنوات الماضية، ونزعة الإقصاء والتفرد المسيطرة على بعض دعاة المرجعية الإسلامية في الفكر الإسلامي المعاصر.

ولمحاولة معالجة هذه القضية، وتحليل الدعاوى المرتبطة بها، والطرح المغاير لها، من خلال دراسة ماهية مشروع النهضة ومقوماته العقدية، والثقافية، والفكرية، والاجتماعية، ألف الأستاذ محمد علي أبو هندي هذا الكتاب.

وكتاب: النهضة في الفكر العربي المعاصر، دراسة مقارنة في فكر حسن حنفي ومحمد عابد الجابري لمؤلفه خالد حسين عبد الله.

وقد كان من أسباب اختيار الكاتب خالد حسين عبد الله دراسة النهضة في فكر حسن حنفي والجابري، اعتبار مشروعهما من أهم وأشمل المشروعات العربية الفكرية المعاصرة؛ فقد ورثا ونقدا التراث والتيارات العربية الحديثة والمعاصرة لهما، إلى جانب انتمائهما إلى تيارين فكرين مختلفين، فحسن حنفي ينتمي إلى اليسار الإسلامي، والجابري ينتمي إلى التيار القومي العربي الجديد، فهما يمثلان الموقف الفكري لهذين التيارين، إضافة إلى أنهما تبنيا التنظير للثقافة والفكر (تحليل الشعور الجمعي وتأويل المخزون النفسي، وتحليل البنية العقلية) كمدخل للإصلاح والنهضة.

وكتاب: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين لمؤلفه محمد رجب البيومي.

شهدت الأمة الإسلامية في أصقاعها نهضة تزامنت مع أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر منه، وذلك بجهود رجال سطر لهم التاريخ أنصع الصفحات، وحول هؤلاء العظام يأتي هذا المؤلف بمجلداته الستة، يقدم المؤلف من خلالها أسماء أعلام متحدثاً عن هذه النهضة النشيطة ورجالاتها من أئمة المسلمين، والملفت أن المؤلف لم يكن ليهدف إلى ترجمة حياة هؤلاء الأبطال، من رصد سنوات البلاد والرحلة والوظائف والوفاة، ولكن كانت غايته الكشف عن أعمال المصلح،

مفسراً دوافعه الذاتية، مقدراً جهاده الدائب فيما اعترضه من الصعاب، وإذ ذاك يتسع المجال للحكم العادل من المؤلف، والاطمئنان من القارئ المصيف.

كتاب: شروط النهضة لمؤلفه مالك بن نبي رحمه الله تعالى.

شروط النهضة كتاب للمفكر الإسلامي مالك بن نبي، صدر بالفرنسية عام 1949م تحت عنوان:les Conditions de la Renaissance . قام بترجمته إلى العربية عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي بإشراف المؤلف، وصدر بالعربية عام 1957م. وصدرت الطبعة الثانية عام 1960 مع بعض الإضافات والتعديلات من قبل المؤلف استجابة لتعليقات وأسئلة قرّاء الطبعة الأولى.

هو كتاب ذو روح إسلامية واضحة، يحاول الكاتب من خلاله أن يقدم أسسا ومفاهيم أولية تساعد على إعادة بناء المجتمعات الآسيوية والأفريقية ( المستعمَرة) وخروجها من مزالق التخلف والتبعية. ويؤكد فيه على فكرة الحضارة المنتجة المستقلة عن منتجات الحضارات الأخرى، فإن شراء كل منتجات حضارة أخرى مستحيل كماً وكيفاً. وإنما يجب على العالم الإسلامي، ليركّب حضارتَه في زمانه هذا، أن يرجع إلى صيغة اقترحها لصناعة أي ناتج حضاري:

ناتج حضاري = إنسان + تراب (مادة) + وقت. وذلك إضافة إلى "الفكرة الدينية" التي لطالما رافقت تركيب الحضارة خلال التاريخ، ومن دونها لا يتم التفاعل المطلوب. وقد قام بذلك بناء على تدبّر مطوّل في تاريخ المسلمين والشعوب كافة، مركزاً كذلك على فترة من تاريخ بلده الجزائر مظهراً تأثره ببوادر نهضة حقيقية مع الاستقلال، ما لبثت أن اندمجت بالنظام السياسي الذي صممته فرنسا فتداعت مقوماتها. يتضح في الكتاب استفادته من التراث الإنساني عامة، وتأثره بأعمال المفكّرين والفلاسفة والمؤرّخين الذين حاولوا بدورهم الكشف عن العوامل تسهم في قيام الحضارة وتقدّم الشعوب. فيبدأ الكتاب ب"أنشودة رمزية" يتضح فيها التأثر بنيتشه وفكرة السوبرمان، ويستفيد من أفكار ابن خلدون وأرنولد توينبي وغيرهم من علماء الاجتماع والإنسان والتاريخ.

وقد كانت فصول الكتاب على النحو التالي:

الباب الأول: الحاضر والتاريخ.

الباب الثاني: المستقبل.

العنصر الأول: الإنسان.

العنصر الثاني: التراب.

العنصر الثالث: الوقت.

الاستعمار والشعوب المستعمرة.

وهناك مؤلفات أخرى نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

– التراث والنهضة قراءات في أعمال محمد عابد الجابري لمجموعة من المؤلفين، وهو من إصدارات مركز دراسات الوحدة العربية.

– العقلانية والنهضة في مشروع محمد عابد الجابري لمجموعة من المؤلفين، وهو من إصدارات مركز دراسات الوحدة العربية.

– بواعث حركة النهضة العربية بين العروبة والإسلام لمؤلفه قدري محمود حنفي.

– محنة النهضة ولغز التاريخ في الفكر العربي الحديث والمعاصر لمؤلفه أحمد جدي.

– الردود الشرعية على شبهات النهضة العلمانية لمؤلفه أبو المنذر الشنقيطي.

– **الأفكار النهضوية عند مالك بن نبي**

أتى المفكر الجزائري "مالك بن نبي" ضمن قائمة رواد الإصلاح في العالم الإسلامي، وممن جاءوا بأفكار عميقة في النهوض الحضاري، وأبدع مشروعا فكريا متكاملا للتغلب على مشكلات الحضارة من خلال رؤية تنطلق من الإسلام، وتستلهم روح العصر والعلم، فاندرجت مؤلفاته التي زادت عن العشرين كتابا كعناوين فرعية لشعاره الكبير "مشكلات الحضارة".

كان مالك بن نبي مفكرا مبدعا، وصاحب نظرية عميقة في البناء الحضاري، وامتلكت أفكاره مكونات القوة بتركيزها على القضايا الأساسية والمحورية في العالم الإسلامي فاهتم بمشكلة الحضارة، والنهضة، والثقافة، والاستعمار، والتبعية، فدرسها في كل مؤلفاته وبكل أبعادها، وأبدع فيها، وطور بعض مفاهيمها، وهذا ما جعله متخصصا في العمل الفكري وصاحب أفكار تتجاوز الحساسيات الطائفية والمذهبية، وتتمتع بالانتشار والقبول، إضافة إلى أن أفكاره غلّبت جانب البناء على الهدم باعتبار أن ذلك هو الأصلح للأمة الإسلامية.

حيث ينطلق فكر "ابن نبي" من سؤال لا يزال يلح على المسلمين منذ أن صدموا بالحضارة الغربية، "وكان السؤال: ما هي أسباب تقهقر المسلمين؟ وما هي شروط النهضة ليستعيد المسلمون دورهم وفاعليتهم المفقودة وليكونوا شهداء على الناس؟"، فالحضارة حسب "ابن نبي" هي "مجموع الشروط الأخلاقية والمادية، التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده – في كل طور من أطواره – وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية".

كما أنها "إنتاج فكرة حية تطبع على مجتمع الدَّفعة التي تجعله يدخل التاريخ". ثم يرسم "ابن نبي" صيغة المركب الحضاري في معادلة رياضية فيرى أن "مشكلة الحضارة تتحلل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي نقيم بناءَ حضارة لا يكون ذلك بأنّ نُكدس المنتجات، وإنّما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها"، ولكن المعادلة تلك تبقى معطلة حتى يضاف إليها العامل المحفز لإتمامها وهي الفكرة الدينية.

لهذا وهب ابن نبي حياته لمعالجة مشكلات الحضارة وأزمة الهوية في المجتمعات العربية التي عرفت انتكاسات ومشاكل الحكم والتنمية والتطور بعد أن استقلت، فابن نبي ألهمته المدرسة القرآنية والباديسية، لذا أنار درب شعوب عانت بشاعة الاستعمار، أنتقد نظريات الغرب القائمة على العنصرية والمادية، داعيا

الجزائريين والمسلمين لتأسيس حضارة عالمية إنسانية تؤثر وتتأثر، فلُقب بفيلسوف الحضارة.

ولكن المفكر الجزائري والعلامة مالك بن نبي بقي تنظيره دون تطبيق في الجزائر وفي عديد الدول العربية. ففي وقت أهملت الجزائر أفكاره المؤسّسة لدولة صلبة، ارتقت بنظرياته دول كثيرة. قضى مالك بن نبي طيلة حياته من أجل شيء واحد، وهو معالجة مشكلة الحضارة، فتفرغ للدراسات والتأمل والنظر في المجتمع الإسلامي، مبرزا دور "الفكرة الدينية" في تطوير الحضارة، وتغييرها وعدم اضمحلالها، تاركا وراءه زخما من الأفكار البناءة لدولة حضارية ونهضة عالمية.

ويمكن السر وراء أفكار مالك بن نبي في ولادته في القرن العشرين في بلد مستعمَر من قبل فرنسا، وسقوط الخلافة العثمانية، ليكون بذلك شاهدا على تخلف وجهل الأمة الإسلامية، الأمر الذي دفعه للبحث في الأسباب الحقيقية لتطور الحضارة وسقوطها، وساعده في ذلك تكوينه في المدرسة القرآنية الباديسية والفلسفة الوجودية التي جعلته رجلا عقلانيا، بالإضافة لتشبعه بدراسات وأفكار ابن خلدون، وهو ما جعل أفكاره امتدادا للأخير، ليتساءل عن دور الدين في تأسيس الحضارة، وقبلها عن ماهية الحضارة ونشأتها وأسباب النهضة للاستعمار وأسباب التخلف والركوض والجهل.

كما تميز مالك بن نبي ببعده الإنساني كونه يختلف عن بقية المصلحين كجمال الدين الأفغاني، محمد عبده وغيرهم، فكان من بين الأوائل الذين طرحوا فكرة العالمية التي ظهرت في القرن العشرين ووصفها بالقدر المحتوم وسنن التاريخ، التي وجب على العالم الإسلامي الانخراط فيها حتى لا يكون كيانا معزولا، يكون قادرا على التطور بالمشاركة في بلورة الثقافة العالمية، والخروج من القابلية للاستعمار، المقولة التي جعلته محل انتقاد من طرف عدة جهات على رأسها جمعية علماء المسلمين الجزائريين.

ومن بين الأفكار التنظيرية عند مالك بن نبي أن الانفصام عن الغرب لا يقدم شيئا للحضارة، بل كان يرى ضرورة إيجاد محور واشنطن – موسكو وطنجة – جاكرتا، حتى إنه كان من بين دعاة ل"كومنولث إسلامي"، وهي بمثابة هيئة أخلاقية وثقافية، كما دعا لحضارة إفريقية آسيوية تهدف لإرساء نموذج عالمي جديد لكن تطلعاته وآماله تلاشت بسبب الفكر الاستعماري.

ومن أهم ما كان يقوله المفكر مالك بن نبي أن الغرب لا يمكنه التأسيس لحضارة إنسانية عالمية لأن امبراطوريته ببساطة عسكرية تفرض هيمنتها على العالم، وأن الإسلام هو السبيل الوحيد القادر على تبسط الحضارة البشرية بعد إفلاس جميع الأيديولوجيات والديانات الوضعية والسماوية.

وعن شروط النهضة يركز بن نبي على أهمية التغيير والتخلص من الروح التي تؤهل صاحبها للاستعمار. فبالتحول النفسي يصبح الفرد قادرا شيئا فشيئا على القيام بوظيفته الاجتماعية، جديرا بأن تُحترم كرامته، وحينئذ يرتفع عنه طابع (القابلية للاستعمار)، وبالتالي لن يقبل حكومة استعمارية تنهب ماله وتمتص دمه، وتهينه وتجهله وتهمشه، فبتغيير الفرد نفسه يغير وضع حاكمية تلقائيا إلى الوضع الذي يريده. فالتّغيير يبدأ بغرس بذور الإصلاح في نفوس الأجيال من خلال التركيز على الهيكلين الأساسيين: المسجد والمدرسة باعتبارهما أساس وجوهر البعث الرّوحي والبعث الفكري اللذين هما عماد كلّ حضارة كما وصفهما ابن نبي، فالمسجد والمدرسة لهما دور كبير في نشر الوعي وغرس الفضيلة والقيم والنسيج الأخلاقي بين أفراد المجتمع وأيّ مساس بهما من خلال توظيفهما لخدمة برامج وأجندات سياسية هو ضرب في صميم مكانتهما المرموقة.

وبعد هذه البسطة حول أفكار مالك بن نبي النهضوية يمكن أن نجمل ذلك في الآتي:

أولاً – الفكرة الدينية عند مالك بن نبي لا تقوم بدورها الاجتماعي إلا بقدر ما تكون متمسكة بقيمها الغيبية؛ أي بقدر ما تكون معبِّرة عن نظرتنا إلى ما بعد الأشياء الأرضية، فالعلاقة بين الله تعالى والإنسان هي التي توجد العلاقة الأرضية.

ثانياً – تعني الحضارة عند مالك بن نبي، توفُّر مجموعة من الشروط المادية والمعنوية، ويُعدُّ الدين منشأ كل حضارة.

ثالثاً – يعد الإنسان في فكر مالك بن نبي محور عملية التغيير وهو الفاعل فيه، ومنطلق التغيير هي النفس باعتبار الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وهو شرط ضروري من شروط الارتقاء في سلم الحضارة.

رابعاً – يصوغ مالك بن نبي مجموعة محاور للتأكيد على دور الإنسان في الزمان والمكان، تتعلق هذه المحاور بالبعد الأخلاقي والنفسي، والاقتصادي، والاجتماعي، يصوغها مالك بن نبي في سياقات مختلفة للحث على البناء والتعمير.

خامساً – يلحُّ مالك بن نبي على طرح فكرة الفعالية، باعتبارها الرابط الذي يجمع بين منطق الفكرة ومنطق العمل من أجل القضاء على السلبية التي تشيع في المجتمعات المتخلفة عبر خلاياه الدقيقة، ومنها تحويل مبادئ القرآن إلى سلوكيات فعليه بدل الإكثار من الكلام عنه، وكأن مالك بن نبي يرفع شعار: «نريد قرآناً يمشي لا نسخاً تتكدس وخطباً تتبجح».

سادساً – عادة ما يعقد بن نبي مقارنة بين إنسان الغرب، والإنسان المسلم، منبهاً إلى تفوق الأول في كل المجالات، لأنه مؤمن بما يعتنق، والواجب عنده أكثر من الوقت.

سابعاً – يحمل مفهوم التراب عند مالك بن نبي معاني ودلالات واسعة؛ فهو من وجهة سياسية قانونية تلك الرقعة الجغرافية التي تحدُّها الحدود، وهو من الناحية الاقتصادية المصدر الرئيسي للإنتاج الزراعي والصناعي على حدٍّ سواء، وهو من الناحية المعنوية، الانتماء والولاء للفكرة والدين.

ثامناً – يأخذ الزمن عند مالك بن نبي أهمية كبيرة لأنه عامل مهمٌّ من عوامل بناء الحضارة، ويدعو مالك بن نبي ضمن أطر كبرى لاستثماره وتوظيفه في الصالح العام، بدل المصلحة الخاصة والبحث عن تحقيق الذات.

تاسعاً – لا يمكن للعناصر الثلاثة أن تمتزج إلا بوجود العامل الروحي، الذي يتلخص في الفكرة الدينية، أو الإيمان وهو التسليم المطلق لإرادة الله عز وجل والعمل ضمن هذه الإرادة في حدود ما شرع وأمر وحدود الحلال والحرام، ثم العمل ضمن دائرة اتباع هدي الرسول.

عاشراً – يستند بن نبي في البرهنة على صحة أفكاره إلى علوم مختلفة، بحكم تخصصه، من رياضيات وكيمياء، وبيولوجيا، كما يستند لعدة مرجعيات عربية وغربية، وعلى رأسهم ابن خلدون، واستفاد بن نبي كثيراً من فن الملاحظة التي أصبحت أداة علمية للوصف.

ملخص القول:

يعدّ مالك بن نبيّ من أكبر فلاسفة الحضارة الإسلامية في القرن الأخير فهو من مواليد 1905 وأحد رواد النهضة الفكرية الإسلامية، فهو مفكر ومهندس حضاري معا، ويتمتع برؤية عالمية وإنسانية وإسلامية في سياق واحد، وكانت جميع اهتمامات مالك بن نبي تصب حول مشاكل الحضارة التي حث على العناية بها، فهي مشروع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطواره وجود منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية، ولا تقوم الحضارة إلاّ على ثقافة المجتمع التي هي "مجموعة من الصفات والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أوّلي في الوسط الذي ولد فيه"، كما ربطها بعناصرها الأساسية التي لا تقوم إلا بمجموعها من إنسان، وقت وتراب وهل قياسها بالصعود والهبوط تبعا للترابط بين هذه العناصر الثلاث والثقافة باعتبارها أسلوب حضارة تحرك الإنسان عبر: المبدأ الأخلاقي، الذوق الجمالي، المنطق العملي والتقنية، ويرى أنّ لكل حضارة نمطها وأسلوبها وخيارها، كما دعا بالرجوع إلى

الأصل ومنبث الحضارة وهي الفترة النبوية، كما ربط بين الحضارة والتربة الإنسانية المثلى، إذ الحضارة الإنسانية ثمار لجهود التعاون الإنساني انطلاقا من منهج تربوي متكامل، يؤخذ به الإنسان بوصفه فردا مستقلا، وعضوا في جماعة، وإذا كان القرآن قد وضع بين أيدينا منهجا متكاملا لأصول التربية الإنسانية ، ومدار الحضارة إنما يقوم على الجهود التي يبذلها الإنسان في نطاق انتقالها من حياة البداوة وبساطتها إلى حياة العمران وتعقيداتها، ولمّا كانت هذه الأخيرة هي ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة، فإنّ المشكلة التي تعاني منها مسيرة البشرية وجهودها أنّ الحضارة بدون تربية قد لا تؤدي إلى الأهداف المرجوة منها، وقد بحث كذلك مالك بن نبي عن أسباب تخلف الأمة العربية الإسلامية وتوصل إلى أن القابلية للاستعمار هي السبب الأساسي لتخلفها وكان هدفه البحث في كيفية بناء حضارة إسلامية جديدة، وتكرار دورة حضارية أخرى.